وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

«دْجين»، الجنّيّة

فجوة حمراء بين الحكايات المتفككة

رواية



تأليف: آلان روب ـ غرييه

ترجمة: د. ريم منصور الأطرش

قصص وروايات 34

«دْجين» ، الجنيّة

الإشراف الطباعي

م. ماجد الـزهـر

«دْجين» ، الجنيّة

فجوة حمراء بين الحكايات المتفكِّكة

رواية

تأليف: آلان روب – غرييّـه

ترجمة: د. ريم منصور الأطرش

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٠

العنوان الأصلي للكتاب:

DJINN

UN TROU ROUGE ENTRE LES PAVÉS DISJOINTS

ROMAN

ALAIN ROBBE - GRILLET

قصص وروايات

«٣٤»

m

لا شيء، أعني، ما من برهان قاطع يسمح لأيٍّ كان بتصنيف حكاية سيمون لوكور ضمن مجموعة القصص الخيالية الصرفة.

وعلى العكس، فباستطاعتنا التأكيد على أن عناصر كثيرة ومهمة في نص متقلّب وناقص وشبه متصدع كهذا النص، تتقاطع بتأكيد ملحوظ مع الواقع المعروف لدى الجميع، وهو بالتالي واقع مضطرب. وإذا كانت المقومات الأخرى للحكاية تبتعد عمداً عن الواقع، فإن هذا الابتعاد يتم دائماً بصورة جِدّ مشبوهة، لدرجةٍ لا يسعنا فيها إلاّ رؤية الإرادة الممنهجة للراوي في ذلك، كما لوٍ أن سبباً خفياً كان قد سيطر على التغييرات والإبداعات في نصه.

إن مثل هذا السبب يخفى علينا بالطبع، في الوقت الحاضر على الأقل. ولو اكتشفناه، لأصبحت المسألة بمجملها واضحة في التوّ واللحظة. على كل حال، من الممكن اعتقاد ذلك.

إننا لا نعرف سوى النزر اليسير عن الكاتب نفسه؛ فهويته الحقيقية بالأساس إشكالية. إذ لا أحد يعرف له نسيباً، بعيداً كان أم قريباً.

وبعد اختفائه، اكْتُشِفَ في منزله جواز سفر فرنسي يحمل اسم «بوريس كورشيمن»؛ هو مهندس ألكترون ومولود في كييف. إلاّ أن قسم الشرطة قد أكد أن هذا الجواز مزوّر بشكل مفضوح من جهات أجنبية على الأرجح. ومع ذلك، فالصورة التي وجدت مثبتة على الجواز، مطابقة لأوصاف هذا الشاب وذلك تبعاً لشهادة كل الشهود. أما بالنسبة لاسم العائلة المعلَن، فلا يُظهر تشابهاً، إطلاقاً، لجَرْس الأسماء الأوكرانية.

ففي المدرسة الأميركية الواقعة في شارع باسي[1] ، حيث كان يدرّس اللغة الفرنسية الأدبية الحديثة قبل بضعة أشهر، كان قد سُجِّل تحت اسم يُكْتَب بشكل مختلف تماماً وهو: «روبن كورسيموس، الملقّب بسيمون لوكور»؛ في هذه المرة، قد يكون هنغارياً أو فنلندياً أو من الممكن أيضاً أن يكون يونانياً. لكنْ لا يمكن سوى تكذيب تلك الفرضية الأخيرة بناء على شكله الخارجي؛ فهو شاب طويل القامة، ذو شعر أشقر وعينين خضراوين صافيتين. أخيراً، تجدر الإشارة إلى أن زملاءه في المدرسة وتلاميذه أيضاً - (ومعظمهم من الفتيات) - لم يلقبوه إلاّ باسم «يان» وكانوا يكتبونه «جان» عندما يرسلون إليه برسائل قصيرة تتعلق بالعمل؛ ولم يستطع أيّ منهم تحديد سبب ذلك.

---

(١) المدرسة الفرنسية الأميركية في باريس (م. ف. أ. ب)، شارع باسي، رقم ٥٦ ، الدائرة ١٦.

والنص الذي يهمنا هنا والمُؤَلَّف من ٩٩ صــفحة مطبوعــة على آلة كتابة، بمسافة مضاعفة بين الأسطر، كــان موضــوعاً على منضدة عمله بــشكل واضــح، فــي غرفتــه المتواضــعة والمفروشة والمستأجَرة في شارع أمستردام، رقــم البنــاء ٢١ ؛ وقد كان النص بجانب آلة كتابة قديمة، وهي في الحقيقــة الآلــة التي استُخْدِمَتْ في طباعة النص حسب رأي الخبراء.

ومع ذلك، يعود تاريخ كتابة هذا العمل إلــى عــدّة أســابيع ماضية، لا بل إلى عدة أشهر دون شك؛ وهنا أيــضاً، يمكــن أن يكون تجاور الآلة والصفحات نتيجة إخراج مسرحي أو تزويــر، تخيلتْه هذه الشخصية المواربِة بهدف التضليل عند اقتفاء أثرها.

ومن خلال قراءة حكايته هذه، يراودنا انطبــاع، فــي بدايــة الأمر، بأننا أمام كتاب مدرسي مخصص لتعليم اللغة الفرنــسية، وما أكثرها من كتب، فهي بالمئات!

ويتميّز بوضوح لا لَبْسَ فيه التطــور المنــتظم للــصعوبات النحوية في لغتنا[١] على مدى الفصول الثمانيــة التــي تتزايــد صفحاتها و تتناسب بشكل عام مع الأســابيع الثمانيــة للفــصل الدراسي الجامعي الأمريكي.

فقد تمّ إدخال الأفعال حسب التسلسل التقليــدي للتــصاريف الأربعة، مع إظهار تضارب واضح أيضاً، في التصريف الثاني، بين الأفعال التي تحوي زائدة وسيطة تدلّ على أفعال الــشروع،

---

(١) المقصود هنا اللغة الفرنسية. (المترجمة).

وبين تلك التي لا تحويها. وقد رُتِبَت الأزمنة والصيغ بشكل كامل أيضاً، بحيث تتابعت بدقة، ابتداءً من الزمن الحاضر، إلى صيغة المنصوب غير الكامل، مروراً بزمن المستقبل غير المؤكد، وصولاً إلى فعل الشرط.

وينطبق القول ذاته على استخدام الأسماء الموصولة التي لا تظهر أشكالها المعقدة إلاّ فيما بعد.

وكالعادة، يُبْقي الكاتب على مجمل الأفعال المتصلة [(١)] بزائدة تفيد الإشارة إلى الضمير في اللغة ليضعها في نهاية النص.

إلاّ أن المحتوى الروائي لهذه الصفحات يبقى بعيداً كلّ البعد عن ذلك المضمون التافه المتعمَّد الذي نجده عموماً في أعمال أخرى من النمط ذاته؛ فنسبة الاحتمالات في الحوادث غالباً ما تكون ضعيفة جداً هنا، قياساً إلى قوانين الواقعية التقليدية.

ولكن، لا بد أن نرى في هذه الغاية التدريسية المزعومة، مجرّد ذريعة للتنصّل من المسؤولية. هل يختبئ أمر آخر خلف هذه الذريعة؟ ولكن، ما هو؟

إليكم الآن النص الكامل الذي تحدّثنا عنه.

في أعلى الصفحة الأولى، نجد هذا العنوان فقط: الموعد.

---

(١) من المؤكد أن نظريتنا هذه حقيقية خاصة بعد أن تم نشر هذه الفصول الثمانية في دار نشر مدرسية في الولايات المتحدة الأميركية، وهي: هولت، رينهارت ووينستون، سي بي إس، ٣٨٣ شارع ماديسون، نيويورك ١٠٠١٧.

الفصل الأول

وصلتُ في الوقت المحدَّد تماماً: إنها السادسة والنصف؛ كان الظلام قد حلّ، والعنبر مفتوحاً. دخلتُ دافعاً الباب غير المُقْفَل.

كل شيء صامت في الداخل. فإذا أنصتَتْ أذن حساسة، فإنها ستسمع صوتاً بسيطاً واضحاً ومنتظماً، قريباً نوعاً ما: إنها قطرات ماء تنقط من صنبور غير محكَمِ الإغلاق وتصب في حوض أو في وعاء، أو أنها تشكّل مجرد بقعة ماء على الأرضية. ومن خلال الإضاءة الخفيفة المنسابة من النوافذ العريضة المتسخة ذات الزجاج المكسور في بعض أجزائه، ميّزتُ بصعوبة الأشياء المحيطة بي والمكدسة بشكل فوضوي في كل جانب، وهي دون شك غير ذات نفع؛ فوجدتُ آلات قديمة مهملة، وهياكل معدنية وحديدية مختلفة، أضفى عليها الغبار والصدأ لوناً ضارباً إلى السواد، كامداً في كل الجوانب.

أخيراً، وبعد أن اعتادت عيناي على الظلام قليلاً، لاحظتُ رجلاً منتصباً قبالتي، دون حراك، يداه في جيب معطفه الواقي من المطر، وهو ينظر إليّ دون أن ينبس ببنت شفة ودون أن

يوجّه إليّ أدنى تحية. كان يضع نظارات سوداء؛ فلمعت فكرة في رأسي: قد يكون ضريراً... كان طويلاً، رشيق القامة؛ وكما يدلّ مظهره، فهو شاب، يستند بكتفه، دون مبالاة، إلى مجموعة من الصناديق المتفاوتة شكلاً وحجماً. وجهه غير واضح الملامح، ذلك لأن نظاراته كانت تغطي وجهه وتحتلّ الفراغ بين ياقة المعطف المرفوعة وطرف القبعة النازل على جبينه؛ كل هذا ذَكَّرني مباشرة ببعض الأفلام البوليسية القديمة في الثلاثينات. وعلى بعد خمس أو ست خطوات من الرجل الذي ما زال جامداً كتمثال من البرونز، وقفت بدوري هذه المرة دون حراك، وتلفظتُ بوضوح ولكن بصوت منخفض، بالجملة المخصصة للتعارف، فقلت: «أعتقد أنك السيد جان؟! اسمي بوريس وأتيت من أجل الإعلان».

وتتالى من جديد صوت قطرات الماء المنتظم، وهو الصوت الوحيد الذي كان مسموعاً في هذا الصمت.

فتساءلت، هل هذا الضرير أصم وأبكم أيضاً؟ وأخيراً، أتى الجواب بعد عدة دقائق: «لا تقل جان؛ اسمي دْجين، وأنا أميركية».

كانت المفاجأة قوية لدرجة أنني كابدت كثيراً لإخفائها. إنه صوت شابة في الحقيقة: صوت موسيقي دافئ، ذو رَجْع قوي، وهذا ما يعطيه حميمية حسية. مع ذلك، فهي لم تصحح لي تسمية «السيد» هذه. فلقد قَبِلَتْها على ما يبدو.

ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيها وسألتني: «هل يضيرك العمل بإمرة فتاة؟».

كان صوتها يحمل نوعاً من التحدي. ولكنني قررت على الفور أن ألعب اللعبة؛ فقلت: «لا يا سيدي، على العكس». إذ لم يكن لي الخيار على أي حال.

لم تكن دْجين تتعجّل الكلام كثيراً، فقد كانت تتفحصني بدقة وقسوة. من المحتمَل أنها أصدرت حكماً على قدراتي في غير صالحي. وقد خشيت من حكمها بعد انتهائها من تفحصي، إذ قالت: «أنت شاب جميل، ولكنك أطول مقارنة بالفرنسيين».

راودتني رغبة في الضحك. فهذه الشابة الأجنبية لم تكد تصل إلى فرنسا على ما أعتقد، وها هي تحمل أفكاراً مسبقة عنها. ومن أجل تصحيح معلوماتها، قلت :«أنا فرنسي». فقاطعتني بعد صمت قائلة: «المشكلة ليست هنا».

إنها تتكلم الفرنسية بلكنة خفيفة فيها الكثير من الجاذبية. بالنسبة لي شخصياً، ذكّرني صوتها الموسيقي ومظهرها المخنث بالممثلة جين فرانك؛ فأنا أحب جين فرانك، وسأشاهد كل أفلامها. ولكن للأسف، وكما قال «السيد» دْجين، المشكلة ليست هنا.

وبقينا هكذا، ندرس بعضنا بعضاً بضع دقائق أخرى. ولكن الظلام بدأ يحلّ شيئاً فشيئاً؛ وحتى أداري انزعاجي، سألتها: «أين المشكلة إذن؟».

يبدو أن دْجين قد أبدت ارتياحاً للمرة الأولى، إذ رسمت على شفتيها ابتسامة جين العذبة وقالت: «من الضروري ألاّ تلفت انتباه أحد».

تملّكتني رغبة قوية بمبادلتها ابتسامتها بابتسامة مصحوبة بإطراء على شخصها، إلاّ أنني لم أجرؤ، فهي ربّ العمل.

اكتفيتُ فقط بالدفاع عن نفسي قائلاً: «لستُ عملاقاً». فطولي، في الحقيقة، لا يتعدّى المتر و٨٠ سنتمتراً، وهي نفسها ليست بقصيرة.

طلبتْ مني التقدم نحوها، فخطوت خمس خطوات باتجاهها. بدا وجهها عن قرب، شاحباً بشكل غريب وجامداً كالشمع؛ فخشيت التقدم أكثر من ذلك. وثبتُّ نظري على فمها... فقالت: «ادنُ أكثر»؛ في هذه المرة، ما من شك على الإطلاق في أن شفتيها لا تتحركان حين تتكلّم. فتقدمتُ خطوة أخرى ووضعتُ يدي على صدرها. هذه ليست امرأة ولا رجلاً، أنا أمام دمية بلاستيكية لعرض الأزياء. الظلام يفسّر اختلاط الأمر عليّ. ولم تكن ابتسامة جين فرانك إلاّ من محضِ مخيلتي. وانبعث الصوت العذب «للسيد» دْجين قائلاً لي بسخرية، مشيراً إلى الوضع المضحك الذي أنا فيه: «تابع اللمس، إن كنت تتمتع بذلك».

من أين يأتي هذا الصوت؟. فالأصوات لا تخرج من عارضة الأزياء هذه، بل من المحتمل أنها تصدر عن مكبّر للصوت مخبأ بجانبها تماماً.

وهكذا، فإنّ شخصاً ما غير مرئي يراقبني، وهو أمر مزعج جداً. تملّكني شعور بكوني أخرق ومهدَّداً ومخطئاً. بالإضافة إلى ذلك، فإن الفتاة التي تحدثني، جالسة على بعد عدة كيلومترات مني؛ وهي تشاهدني على شاشتها «التلفزيونية»، وكأنني حشرة وقعتْ في الفخ. أنا واثق من أنها تسخر مني.

قال الصوت: «في نهاية الممر الرئيسي، هناك سلّم؛ اصعد إلى الطابق الثاني حيث تجد نهايته». ونفّذتُ هذه التعليمات بارتياح، إذ إنني كنتُ سعيداً بانفصالي عن دميتي الجامدة.

عندما وصلتُ إلى الطابق الأول، وجدتُ أن السلّم ينتهي عند هذا الحد. وقد تأكد لي رأيي بأن دْجين ليست من سكان فرنسا، لأنها تعتبر الطابق الأول هو الثاني، كما هي الحال في أميركا.

أنا الآن في غرفة تشبه سقيفة واسعة تماثل الطابق الأرضي تماماً: فهناك النوافذ الزجاجية المتسخة ذاتها، والتوضّع ذاته للممرات التي تفصل بين الأشياء المختلفة والمكدّسة، ولكنّ الإضاءة هنا أفضل. جلتُ بناظريّ يمنة ويسرة بحثاً عن وجود إنساني في هذا الركام من الكرتون والخشب والحديد.

وفجأة، تملّكني انطباع مخيف أن المشهد ذاته يتكرّر كما لو كان ينعكس في مرآة: إذ تقف قبالتي وعلى بعد خمس أو ست خطوات، الشخصية الجامدة ذاتها، مرتدية المعطف الواقي من

المطر ذا الياقة المرفوعة، والنظارات السوداء، وعلى رأسها القبعة ذاتها المصنوعة من اللباد التي تغطي جبينها؛ أي، عارضة أزياء ثانية، وهي صورة طبق الأصل عن الأولى، وفي وضعية مماثلة.

تقدمتُ الآن دون تردد، ومددتُ ذراعي إلى الأمام... ولحسن الحظ، توقفت عن الحركة في الوقت المناسب: إذ إن هذا «الشيء» ابتسم بشكل لا يدعو إلى الشك؛ هذا إن لم أكن مجنوناً.

عارضة الأزياء هذه المزيفة الشمعية هي امرأة حقيقية. سحبتْ يدها اليسرى من جيبها، وبحركة بطيئة جداً، رفعتْ ذراعها حتى تُبْعِدَ عنها ذراعي التي بقيت مسمَّرة في الهواء من هَوْل المفاجأة. قالت: «لا تلمس، إنه مفخخ!».

إنه فعلاً الصوت ذاته والجاذبية الحسية ذاتها، ولهجة أهل بوسطن ذاتها؛ الاختلاف الوحيد هو أنها أصبحت تحدثني بصيغة المفرد(١) ودون تكلّف وبوقاحة كاملة.

قلت: «اعذريني، فأنا غبي». وعادت فوراً فاستردت لهجتها القاسية ودونما جواب قالت: «مراعاةً للأصول! أنت مجبر دائماً على استعمال صيغة الجمع المفخمة في حديثك معي». فقلت: ««أوكيه»...اتفقنا» وذلك دون أن أتخلى عن تظاهري بمزاج هادئ.

---

(١) في اللغة الفرنسية، يتخاطب الناس في ما بينهم بصيغة الجمع إن لم تكن هناك معرفة سابقة بينهم أو إن لم يكونوا أصدقاء. (المترجمة)

ومع ذلك، فقد بدأ كل هذا الإخراج المسرحي يضايقني. لا شك أن دْجين تتقصد ذلك، إذ أضافت بعد لحظة من التفكير: «ولا تقل «أوكيه»، فهذه الكلمة سوقية، خاصة وأنت تتحدث بالفرنسية».

تمنيتُ لو تنتهي هذه المقابلة المزعجة بسرعة: فأنا لا أرجو من ورائها شيئاً، خاصة بعد استقبال كهذا. ولكن، في الوقت نفسه، كانت هذه الشابة الوقحة تمارس عليّ سحراً مربكاً. قلت: «شكراً لما تعطيني إياه من دروس في اللغة الفرنسية».

فقالت، وكأنها استقرأت أفكاري: «من المستحيل أن تتركنا، فات الأوان، فالمَخرَج محروس. أقدِّم لك لورا، وهي مسلّحة».

والتفتُّ باتجاه السلّم، فوجدتُ فتاة أخرى تقف هناك في أعلاه، وترتدي الملابس ذاتها، والنظارات السوداء والقبعة الطرية، وتدسّ يديها في جيبي معطفها الواقي من المطر.

إن وضعية ذراعها اليمنى، وشكل جيبها يعطيان انطباعاً حقيقياً بالتهديد؛ فإمّا أن هذه الشابة توجِّه مسدساً ذا عيار قوي نحوي، مخبأ ضمن القماش... أو أنها تتظاهر بذلك.

وبأفضل أسلوب موجز رنّان، قلت لها: ««هالّو» لورا. كيف حالك؟». فأجابت كرجع الصدى، وبلهجة أنغلوساكسونية واضحة: «كيف حالك؟».

وبما أنها تستخدم صيغة الجمع في حديثها معي، فهي في رتبة دنيا في المنظمة. ومرّت في رأسي فكرة عبثية، ألا وهي أن لورا ليست سوى الدمية الجامدة لعارضة الأزياء في الطابق الأرضي، وهي قبالتي من جديد، بعد أن صعدت السلّم في إثري.

في الحقيقة، لم تعد الفتيات كما كنّ من قبل، فهنّ يَقُمْنَ اليوم بدور العصابات كالصِبية تماماً. إذ ينظمْنَ عمليات سطو، ويمارسْنَ ألعاباً يابانية كالكاراتيه، ويغتصبْنَ المراهقين العزّل ويلبسْنَ البنطال... لقد أصبحت الحياة مستحيلة هكذا!

من المحتمل أن دْجين قد اعتقدت أن عليها إعطاء بعض الإيضاحات الضرورية، إذ بدأت في هذه اللحظة حديثاً طويلاً: «آمل أن تغفر لنا أساليبنا، فنحن مضطرون بشكل مطلق للتصرّف على هذا النحو؛ وعلينا أن نأخذ حذرنا من الأعداء المحتمَلين، وأن نراقب إخلاص الأصدقاء الجدد؛ باختصار، علينا أن نعمل دائماً بحذرٍ شديد كما رأيتَ للتوّ». وبعد فترة من الصمت، تابعتْ قائلة: «نشاطنا سرّي بحكم الضرورة، فهو يسبّب لنا مجازفات خطيرة. وأنت ستساعدنا. سنعطيك تعليمات دقيقة؛ ولكننا نفضّل، وعلى الأخص في البداية، ألاّ نكشف لك، لا عن المعنى الخاص لمهمتك ولا عن الهدف العام لمنشأتنا. وهذا كله لأسباب نتوخى فيها الحذر والنجاعة أيضاً».

سألتُها، ماذا يحدث لو رفضتُ. في الحقيقة، لم تترك لي خياراً بديلاً وتابعتْ: «أنت بحاجة إلى المال، وسندفع لك؛ إذن عليك أن تقبل دون نقاش. عبثاً تطرح الأسئلة أو تقوم بالتعليق. عليك تنفيذ ما نأمرك به، وانتهى الأمر».

أنا أحب الحرية، أحب أن أكون مسؤولاً عن أفعالي وأحب أن أفهم ما أفعله... ومع ذلك، فقد وافقتُ على هذه الصفقة الغريبة. ليس الخوف من هذا المسدس الوهمي هو الذي دفعني لذلك، ولا حاجتي الماسّة للمال... فهناك وسائل عديدة لكسب العيش حين يكون المرء شاباً. إذن، لماذا؟ هل من باب الفضول؟ أم من باب التحدّي؟ أم لدافع أكثر غموضاً؟ على كل حال، إذا كنتُ حرّاً، فمن حقي أن أفعل ما أرغب به، حتى لو كان ذلك ضد ما يمليه عليّ عقلي.

قالت دْجين: «أنت تفكّر بشيء تخفيه عني».

قلت: «نعم»

- وما هو؟

- لا علاقة له بالعمل.

رفعتْ دْجين نظاراتها السوداء، وتركتني أتأمل عينيها الجميلتين الصافيتين. وأخيراً، ابتسمت لي ابتسامتها الجميلة التي كنت أتمنى رؤيتها منذ البداية. وعادت إلى مخاطبتي بصيغة الجمع، وتمتمت بصوتها العذب الدافئ: «تستطيع الآن التصريح بما تفكر به».

فقلتُ: «الصراع بين الجنسين هو محرّك التاريخ».

الفصل الثاني

لاحظت تغييراً حقيقياً في مزاجي حينما أصبحت وحيداً من جديد، فسرت بخطى حثيثة في الشوارع التي تنيرها الآن وبشكل ساطع الفوانيس وأنوار واجهات المحال التجارية: إنها فرحة جديدة خالصة ترقص في جسدي، وتحثّ أفكاري، وتلّون أبسط الأشياء حولي. لم تعد تلك هي خفة الروح الغامضة واللامبالية ذاتها في ذلك الصباح، ولكنها نوع من السعادة، حتى إنها نوع من الحماسة، دون سبب محدد.

أحقاً دون سبب؟ لماذا لا أعترف بالأمر؟ فلقائي بدْجين هو طبعاً السبب في هذا التحوّل الملحوظ والمفاجئ. ففي كل لحظة أفكّر فيها، بداعٍ وبغير داع: أفكر في صورتها وخيالها ووجهها وحركاتها وطريقتها في التحرّك وأخيراً، ابتسامتها؛ كلها حاضرة دائماً في ذهني؛ وعملي، لا يتطلب مني بالتأكيد مثل هذا الاهتمام بالشكل الخارجي لرئيسي في العمل. أصبحت أنظر إلى المحالّ التجارية والمارّة والكلاب بمرح وبرفق، بعد أن كنت أرى المحالّ بشعة في هذا الحي، وبعد أن كنت عادةً أكره الكلاب.

رغبت في الغناء والركض. ورأيت السرور على كل الوجوه. ففي العادة، يكون الناس أغبياء وحزانى؛ أما اليوم، فقد مُسِحُوا بلمحة من الظرافة التي لا تُفَسَّر. لا شك أن عملي الجديد ممتع، فهو يتحلّى بروح المغامرة، ولكنه يتميّز بشيء آخر أيضاً هو روح المغامرة العاطفية...

كنت دائماً عاطفياً وخيالياً، هذا مؤكّد. إذن، من المهم هنا أن أنتبه جيداً؛ إذ إنني أخشى أن يجرّ خيالي الحيوي الأخطاء على أحكامي، وحتى الهفوات الكبيرة على أفعالي. وفجأةً، طفا على سطح ذاكرتي أمر بسيط منسي: فمن المفترض ألاّ ألفت انتباه أحد من الناس. قالت دْجين هذا ورددته عدة مرات. في حين أنني أفعل العكس تماماً: فكل الناس يلحظون دون شك حماستي الفرحة التي تناقصت، فجأة، عدة درجات.

دخلتُ إلى مقهى، وطلبت فنجان قهوة «إكسبرسو» سادة. لا يحب الفرنسيون إلاّ القهوة الإيطالية؛ إذ إن القهوة الفرنسية ليست مركّزة كما يجب. ولكن القهوة الأميركية أسوأ نوع بالنسبة إليهم.... لماذا أفكر بأميركا؟ بسبب دْجين مرة أخرى؟! لقد بدأ ذلك يزعجني. هذا أمر متناقض: ففي فرنسا، يطلب المرء فنجان «إكسبرسو» إيطالياً حتى لا يلفت انتباه الناس. هل هناك حقاً أناس فرنسيون أو أميركيون؟ الفرنسيون، هكذا... الفرنسيون

يأكلون هذا ولا يأكلون ذاك... الفرنسيون يلبسون على هذا النحو، يسيرون بهذه الطريقة... بالنسبة للأكل، نعم، مازال هذا صحيحاً، ولكن ليس كما في السابق.

عُلِّقَت على جدار المقهى، فوق سُدَّة المحاسبة، قائمة بالأسعار؛ قرأت: «هوت دوغ»، «بيتزا»، شطائر، «رولموبس»(١)، «المرغيز»(٢)...

جلب لي النادل فنجاناً صغيراً يحوي سائلاً أسود فاحماً ووضعه على الطاولة أمامي، مع قطعتين من السكر مغلّفتين معاً بورقة بيضاء. ثم، ذهب حاملاً معه في طريقه، كأساً وسخة كانت على طاولة أخرى.

اكتشفت حينها أنني لست الزبون الوحيد في هذا المقهى الصغير، الذي كان مع ذلك خالياً من الزبائن حين دخلت. فبجواري طالبة على ما يبدو، ترتدي سترة حمراء، وهي غارقة في قراءة كتاب كبير في الطب.

وفيما كنت أتفحصها، بدت كأنها خمّنت بأن نظراتي مصوّبة نحوها، فرفعتْ عينيها ونظرت في اتجاهي. فخطرت في بالي فكرة ساخرة: قضي الأمر؛ قد أخفقتُ إذ لفتُّ الانتباه إليّ! تأملتني الطالبة طويلاً وبصمت، كأنها لا تراني، من ثم عادت تقرأ في كتابها.

---

(١) قطعة فيليه سمك الرَنْكة المملَّح، مع النبيذ الأبيض ملفوفة حول الخيار المخلَّل. (المترجمة)

(٢) نوع من اللحم المبهّر يصنع على شكل مقانق. (المترجمة)

لكن، بعد لحظات، تفحصتني من جديد، وقالت في هذه المرة بلهجة معتدلة وبنبرة واثقة وهادئة: «إنها السابعة وخمس دقائق، ستتأخر عن موعدك». إلاّ أنها لم تنظر حتى إلى ساعتها. وبحركة آلية، نظرت إلى ساعتي؛ إنها حقاً السابعة وخمس دقائق. ولديّ موعد في السابعة والربع في محطة الشمال (الغار دو نور). هذه الفتاة إذن جاسوسة، وضعتها دْجين في طريقي لتراقب جديّة عملي. بعد لحظة من التفكير، قلت: «هل تعملين معنا؟». وبما أنها ظلّت صامتة، سألتها مرة أخرى: «كيف أمكن أن تعرفي كل شيء عني؟ أنت تعرفين من أنا، وأين أنا ذاهب، وماذا عليّ أن أفعل، وفي أي ساعة. إذن، أنت صديقة دْجين أليس كذلك؟». نظرتْ إليّ شزراً وبقسوة دون شك، حيث صرّحت في النهاية: «أنت تتكلم كثيراً». وعادت فدسّت وجهها في كتابها. بعد ثلاثين ثانية، ودون أن تترك القراءة، تلفظتْ ببضع كلمات، بتمهل وكأنها تحدّث نفسها. يبدو عليها كأنها تتهجّى مقطعاً صعباً من كتابها: «الشارع الذي تبحث عنه هو الثالث إلى اليمين، المتفرِّع عن هذا الشارع الرئيسي».

في الحقيقة، لهذا الملاك الحارس الحق فيما قاله: فإذا بقيت لأناقشها سأتأخر. قلت معبِّراً عن استقلاليتي بتحية تفخيمية مبالغ فيها: «أشكرك».

نهضتُ، وذهبت إلى الصندوق، فدفعت ثمن مشروبي ثم دفعت الباب الزجاجي وخرجت. وحين وصلت إلى الجهة المقابلة تطلّعت إلى الوراء نحو الصالة الكبيرة للمقهى والمشعَّة بالإضاءة، حيث لا يوجد أحد غير الفتاة الشابة ذات السترة الحمراء. لم تعد تقرأ الآن، لقد أغلقت الكتاب الكبير ووضعته على المنضدة أمامها، وأخذت تلاحقني بنظراتها دون أدنى انزعاج وبطريقة هادئة وقاسية.

بالرغم من رغبتي في عمل عكس ذلك، محاولة مني لإثبات حريتي، إلا أنني تابعت طريقي في الوجهة الصحيحة في الجادّة، بين جماعات من الرجال والنساء عائدين من أعمالهم وقد خلعوا برقع اللامبالاة والتعاطف.

منذ الآن اقتنعت أن الكل يراقبني. عند التقاطع الثالث، انعطفت إلى اليمين ودخلت في زقاق مقفر ومعتم.

تشكِّل هذه الطريق الفرعية الصغيرة تناقضاً تاماً مع الجادّة الكبيرة التي تركتها لتوّي لأنها خالية من السيارات المتحركة والمتوقفة، وهي مضاءة فقط من بعيد بفوانيس مهمَلة ذات إضاءة صفراء باهتة ومرتجفة؛ ويبدو أن هذه الطريق قد أهملها سكانها أنفسهم. أما البيوت فمنخفضة (طبقة واحدة على الأكثر) وفقيرة وغير مضاءة النوافذ. وبالتالي يوجد هنا بشكل خاص عنابر وورشات.

أما الأرض فهي غير مستوية، ومكسوّة ببلاط قديم الطراز وسيء الحال، يحتفظ ببقع من الماء الوسخ بين الأجزاء المحفورة فيه.

ترددت في الولوج أكثر في تلك الطريق الضيقة والمتطاولة التي تشبه كثيراً الطريق المسدودة: وبالرغم من الظلمة، ميّزت سوراً دون منفذ يسدّ الطرف الآخر ظاهرياً. هناك مع ذلك عند مدخل الطريق لوحة زرقاء تحمل اسم طريق حقيقية، أي بمخرجَيْن كتب عليها:

«شارع فيرسانجيتوريكس(١) الثالث». كنت أجهل وجود فيرسانجيتوريكس ثالث، وحتى ثانٍ.

بعد تفكير، وجدت أنه بالإمكان إيجاد منفذ في نهاية الطريق إلى اليمين أو إلى اليسار. ولكنْ، عدم وجود أي سيارة أمر يدعو إلى القلق. هل أنا فعلاً في الطريق الصحيحة؟ كانت فكرتي أن أمرّ من الطريق التالية التي تعوّدت المرور فيها. أنا متأكد من أنها تؤدي إلى المحطة بالسرعة نفسها تقريباً. ولكنّ تدخّل طالبة الطب هو الذي دفعني إلى اتخاذ هذه الطريق المختصرة المزعومة.

---

(١) جنرال ورجل دولة غالي، ولد في العام ٧٢ قبل الميلاد، وكان خطيباً مفوّهاً وجريئاً. نودي به زعيماً للتحالف الغالي ضد القيصر. دافع عن جيرغوفيا في بلاد الغال، إلا أن القيصر سجنه ثم أعدمه في روما. (المترجمة)

يمضي الوقت سريعاً؛ فلم يتبق على موعدي في محطة الشمال إلاّ أقل من خمس دقائق. يمكن لهذا الزقاق الضائع بين الأزقة أن يشكّل اقتصاداً قيّماً للوقت. على كل حال، فهو مناسب للتقدم فيه بسرعة، إذ إن المرء لا يتعرّض فيه لأي إزعاج في السير، فلا سيارة تمر ولا أحد من المشاة، كما أن التقاطعات فيه معدومة أيضاً. وبما أنني قَبِلت المخاطرة (بالصدفة للأسف!)، لم يبق لي إلاّ أن أختار بحرص موقع قَدَمَيْ في الأجزاء الصالحة للسير على قارعة الطريق الخالية من الرصيف، حيث سرت بأوسع قفزات ممكنة. لقد سرت بسرعة كبيرة، لدرجة تملّكني فيها انطباع بأنني أطير كما في الأحلام. حتى الآن، أنا أجهل المعنى الأكيد لمهمتي: فهي تتلخص فقط في أن أستدلّ على أحد المسافرين، الذي سيصل إلى باريس في قطار أمستردام الساعة السابعة مساءً واثنتي عشرة دقيقة (أما أوصافه الدقيقة، فأحتفظ بها في رأسي).

ثم أذهب إلى فندقه بملاحقة سرية لهذه الشخصية. هذا كل شيء حتى الآن. وآمل معرفة البقية قريباً.

فجأة، ظهر طفل أمامي على بعد عشرة أمتار، وكنت لم أصل بعد إلى منتصف الطريق اللانهائية. لقد خرج من أحد المنازل الواقعة إلى يمين الطريق، وهو منزل يعلو قليلاً عن الأبنية المجاورة له، وعَبَر الشارع بكل ما أوتيتْ ساقاه الفتيّتان من سرعة.

وفيما هو يركض، تعثّر ببلاطة نافرة ووقع في بقعة من الطين المُسْوَدّ دون صراخ. وتمدّد على بطنه، وذراعاه إلى الأمام دون حراك. وبقفزات معدودة، أصبحتُ قريباً من هذا الجسم الصغير الساكن. وقلبته على ظهره بحذر. إنه ولد يبلغ العاشرة من العمر، ويرتدي ملابس غريبة؛ فهو يبدو كطفل من القرن الماضي(١) ببنطاله المشدود تحت الركبتين بنوع من الجورب الطويل، وقميص عريض وقصير إلى حدّ ما مشدود إلى جسمه بواسطة زنار عريض من الجلد. عيناه مفتوحتان تماماً، ولكنّ البؤبؤين ثابتان. فمه مفتوح وشفتاه ترتجفان قليلاً. أطرافه مرتخية دون حراك وكذلك رقبته؛ أما جسمه بكامله فيشبه دمية من القماش.

لحسن الحظ لم يسقط في الوحل، ولكنه سقط بالقرب من حافة هذه البقعة المليئة بالماء الوسخ. وعند تفحصها عن قرب، بدت وكأن ماءها لزج وذو لون بني أقرب إلى الحمرة منه إلى السواد. فتسلل فجأة إليّ قلق غير قابل للتفسير. هل أخافني لون هذا السائل الغريب؟ أم، ما الذي أخافني غير ذلك؟

ونظرت إلى ساعتي التي كانت تشير إلى السابعة وتسع دقائق. من المستحيل بعد الآن الذهاب إلى المحطة لانتظار وصول قطار أمستردام. وهكذا، فمغامرتي التي وُلِدَت هذا

---

(١) أي القرن التاسع عشر. (المترجمة)

الصباح، قد انتهت فعلاً. إلاّ أنني غير قادر على ترك هذا الطفل الجريح حتى من أجل حب دْجين... ليكن! لقد فاتتني موعد القطار على كل حال. إلى يميني، كان هناك باب مفتوح على مصراعيه؛ لا شك أن الصبي خرج من هذا المنزل. ومع ذلك، لم يكن هناك أي نور مرئي في الداخل، لا في الطابق الأرضي ولا حتى في الطابق الأعلى. حملتُ الصبي بين ذراعَيْ: إنه نحيل جداً وخفيف كالعصفور. ومن خلال النور الضئيل المنبعث من الفانوس القريب، ميّزتُ وجهه: ما من جرح ظاهر عليه، لقد كان وجهه هادئاً وجميلاً، إلاّ أنه شاحب جداً. ربما اصطدمت جمجمته بالبلاطة، فبقي غائباً عن الوعي من جرّاء هذه الصدمة. إلاّ أنه قد سقط منبطحاً، ممدود الذراعين، فالرأس لم تصطدم إذن بالأرض. عَبَرْتُ عتبة المنزل وحِمْلي الخفيف بين ذراعَيْ. تقدمتُ بحذر في ممر طويل عمودي على الشارع. كل شيء كان يلفّه السواد والصمت.

ووصلت إلى سلّم خشبي دون أن أصادف مخرجاً آخر، مثل باب داخلي أو ممر آخر. وبدا لي أنني لمحت ضوءاً خافتاً في الطابق الأول.

صعدتُ بخطى وئيدة، لأنني كنت أخاف التعثر أو اصطدام رِجْلَيْ الصبي أو رأسه، الذي ما زال دون حراك، بحاجز غير مرئي.

يطلّ على سلّم الطابق الأول بابان، الأول مغلق والثاني موارب.

من هذا الباب يأتي نور غامض. دفعتُ الباب بركبتي ودخلت إلى غرفة ذات أبعاد واسعة ونافذتين تطلان على الشارع.

لم يكن هناك من إضاءة في الغرفة، إذ كان النور يأتي فقط من الفوانيس في الخارج ويدخل عَبْر زجاج النوافذ الخالية من الستائر؛ وكانت تلك الإضاءة كافية لكي أميّز حيّز الأثاث: فهناك منضدة من الخشب الأبيض، وثلاثة أو أربعة كراسي مختلفة بعضها عن بعضها الآخر وذات مقاعد قديمة نوعاً ما ومهترئة، ثم هناك سرير حديدي على الطراز الإسباني وكمية كبيرة من الحقائب بأشكال وأحجام مختلفة. يتألف السرير من فراش، لكن دون ملاءة أو أغطية. وضعت الطفل على هذا الفراش الممزّق بأرقّ ما استطعت. لم يزل فاقداً للوعي، دون أي إشارة تدلّ على أنه حيّ يرزق سوى نَفَس ضعيف. نبضه ضعيف جداً، ولكّن عينيه الكبيرتين ما زالتا مفتوحتين تلمعان في الظلمة. ونظرت باحثاً عن مفتاح النور، أو عن المحوّل الكهربائي أو عن أي شيء آخر يمكّنني من إنارة المكان، ولكني لم أرَ شيئاً من هذا القبيل. لاحظت حينئذ بأنه لا يوجد حتى مصباح واحد، لا في السقف ولا على المنضدة، وليس هناك أي مصباح في كل هذه الغرفة. عدت إلى صحن الدَرَج وناديت بصوت منخفض أولاً ثم بصوت أقوى؛ إلاّ أنني لم أسمع أي جواب. كان البناء غارقاً في صمت تام وكأنه بناء مهجور. لم أعد أعرف كيف أتصرّف، فقد

صرتُ أنا أيضاً كالمهجور خارج الزمن. فجأة، خطرت لي فكرة جعلتني أعود أدراجي إلى نوافذ الغرفة متسائلاً: إلى أين كان الطفل متجهاً وهو يركض بهذه السرعة؟ كان يعبر الطريق من جهة إلى أخرى بشكل مستقيم. إذن ربما يقطن في الجهة المقابلة. ولكن، ليس هناك منزل في الجهة المقابلة للطريق؛ يوجد فقط جدار طويل من الآجُرّ دون أي فتحة تُذْكَر. وإلى اليسار قليلاً، هناك سياج متهدّم. عدت إلى الدَرَج وناديتُ من جديد، ولكنْ عبثاً، لا جواب. أنصتٌّ إلى دقات قلبي. كان لديّ انطباع قوي هذه المرة أن الزمن قد توقف. وذكّرني صوت حركة خفيفة في الغرفة بمريضي. حين وصلت ووقفت على بعد خطوتين من السرير، تملكتني دهشة كبيرة وتراجعت عفوياً إلى الوراء: إذ إن الولد ما زال في الوضعية ذاتها التي تركته عليها، إلاّ أنه الآن يحمل على صدره صليباً كبيراً من الخشب الداكن وعليه تمثال فضي صغير للسيد المسيح، ويمتد هذا الصليب على طول جسمه بدءاً من الكتفين وحتى الخصر. تلفتّ في كل الاتجاهات، فلم أجد سوى هذا الولد الممدد. فكرت عندئذ أنه هو نفسه صاحب هذه التمثيلية المرعبة: فهو يدّعي فقدان الوعي ولكنه يتحرك عندما أدير ظهري. تفحصت وجهه عن قرب، فوجدت أن ملامحه جامدة كملامح وجه مصنوع من الشمع، ولونه شاحب كشحوب الشمع وكأنه راقد في قبر.

في هذه اللحظة، وحين رفعت رأسي، لاحظت وجود طفل ثانٍ واقف عند عتبة الغرفة: إنها فتاة صغيرة تبلغ السابعة أو الثامنة من العمر تقريباً، جامدة لا تتحرك، ضمن إطار الباب، وعيناها مثبتتان عليّ. من أين جاءت؟ وكيف وصلت إلى هنا؟ إذ إنها لم تحدِث أي ضجة عند قدومها. في النور الغامض، استطعت على الأقل تمييز ثوبها الأبيض بوضوح؛ وهو من الطراز القديم، وذو قفص مثبت وتنورة عريضة متغضنة ومنفوخة تصل إلى الكاحلين.

فقلت لها: «مرحباً، هل أمك هنا؟».

استمرت الفتاة في النظر إليّ بصمت. كان هذا المشهد غير واقعي وشَبَحيّاً وجامداً لدرجة أن جَرْسَ صدى صوتي كان غريباً على أذنيّ أنا نفسي، وكأنه صوت افتراضي وغير واقعي في هذا المحيط السحري، وتحت تلك الإنارة الخافتة الزرقة...

بما أنه لا حلّ سوى إطلاق بعض الكلمات، لا على التعيين، تلفظت بصعوبة بالغة بهذه الجملة الضحلة: «سقط أخوك أرضاً». وقعت مقاطع كلماتي هي أيضاً دون أن تلقى رداً أو صدى، وكأنها أشياء غير نافعة وغير ذات معنى. وعاد الصمت من جديد ليطبق على المكان. هل تكلمتُ فعلاً؟ وبدأ البرد وعدم الإحساس والشلل بالتسلل إلى جسمي والسيطرة عليه.

الفصل الثالث

كم من الوقت دام هذا السحر ؟ اتجهت الفتاة الصغيرة نحوي، بعد أن اتخذت قرارها المفاجئ، بخطوات ثابتة ودون أن تنبس ببنت شفة. بذلت جهداً كبيراً كي أخرج من الخَدَر الذي أصابني. ومسحت بيدي على جبيني وأجفاني مرات عديدة. نجحت أخيراً في العودة إلى الواقع، وبدأت أستعيد أحاسيسي شيئاً فشيئاً.

فوجئت بنفسي الآن جالساً على كرسي من القش، إلى رأس السرير، وبقربي ما زال الولد نائماً، مستلقياً على ظهره بعينين مفتوحتين، والصليب موضوعاً على صدره. تمكّنت من النهوض دون كبير عناء.

أمسكت الفتاة بشمعدان من النحاس يلمع كالذهب، مزوّد بثلاث شمعات مطفأة. وسارت دون أن تحدث أدنى ضجة، إذ إنها كانت تنزلق كالطيف، وذلك بسبب حذائها ذي النعل المصنوع من اللباد. وضعت الشمعدان على الكرسي الذي تركتُه لتوّي. ثم أشعلت الشمعات الثلاث، الواحدة تلو الأخرى، بتأنٍ، وفي كل مرة كانت تشعل عود كبريت جديد، ثم تطفئ شعلته بعد استعماله لتضع ما تبقّى منه مسوَدّاً في العلبة، بِجدِيّة تامة.

سألتها: «أين يوجد هاتف؟ سنستدعي طبيباً لأخيك».

تفحصتني بتكبّر كما نفعل حين نتحدث إلى شخص أخرق وأحمق.

فقالت: «جان ليس أخي. ولن يفيد الطبيب في شيء، مادام جان قد مات».

تكلمت بطريقة الأشخاص الكبار دون أي صيغة طفولية. كان صوتها موسيقياً وعذباً، إلاّ أنه لم يعبّر عن أي انفعال. أما ملامح وجهها فكانت تشبه ملامح الولد المغمى عليه إلى حدّ كبير ولكنها أكثر أنثوية بطبيعة الحال.

فقلت: «هل اسمه جان؟». كان السؤال سطحياً. ولكن فجأة، اكتسحتني ذكرى دْجين، وشعرت من جديد بخيبة أمل عنيفة. فقد تجاوزت الساعة الآن السابعة والنصف. إذن، انتهت المهمة بالتأكيد، وكانت نهاية سيئة بالأحرى. رفعت الفتاة الصغيرة كتفيها باستهتار وقالت: «بالتأكيد، فبماذا تريد أن تناديه؟»؛ ثم، وبالطريقة الجدية والعقلانية ذاتها تابعت حديثها قائلة: «لقد مات البارحة».

- ماذا تقولين؟ عندما يموت المرء، فإلى الأبد.

- لا؛ ليس هكذا يتم الأمر مع جان!" هذا ما أكدته بشكل قاطع، لدرجة أنني أحسست باضطراب قوي.

ابتسمت في داخلي على الأقل بسبب هذا العرض الغريب الذي نقدمه، كلانا، وتلك الأحاديث العبثية التي نتفوه بها. ولكني اخترت أن أكمل اللعبة، فقلت: «هل يموت غالباً؟».

- في هذه الفترات، نعم، غالباً ما يموت. ولكن في المرات الأخرى يبقى عدة أيام دون أن يموت.

- وهل يدوم هذا طويلاً؟

- قد يدوم ساعة أو دقيقة أو قرناً من الزمن. لا أدري، فأنا لا أحمل ساعة في يدي.

- وهل يخرج وحده من الموت؟ أم أن عليك مساعدته؟

- أحياناً يعود إلى الحياة وحده؛ بشكل عام، يعود عندما أغسل له وجهه فأنت تعلم مدى تأثير المسحة المقدسة".

أحاول الآن تفهم المعنى المحتمل من كل هذا: لابد أن الصبي تصيبه حالات متكررة من الإغماء، ذات منشأ عصبي ولا شك؛ أما الماء البارد على جبينه، فهو بمثابة مادة منعشة كي يسترد حيويته ونشاطه.

ومع ذلك، لا أستطيع ترك هذين الطفلين قبل أن يستيقظ الصبي المريض.

بدأ نور الشمعات الآن يضفي اللون الزهري على وجهه. وخفف انعكاس الشعلة من الظلال حول فمه وأنفه. وعكست الحدقتان اللتان تتلقيان هما أيضاً هذا النور الجديد، أنواراً متراقصة، فكسرتا بذلك من حدّة جمود نظرته.

جلست الفتاة ذات الثوب الأبيض بشكل عفوي على السرير، بجانب قَدَمَيْ الجثة المزعومة. فلم أستطع منع نفسي من حركة تهدف إلى حماية الطفل من الاهتزازات التي قد تحدثها الفتاة للسرير المعدني.

فحدجتني بالمقابل بنظرة احتقار قائلة: «الأموات لا يتعذبون، عليك أن تعرف هذا، فهم ليسوا من هذا العالم، إنهم يرقدون في عالم آخر مع أحلامهم...».

بدت نبرة صوتها منخفضة حزينة، وأصبحت أكثر حناناً وكأن صوتها آتٍ من بعيد، لتهمس أخيراً قائلة:

«غالباً ما أستلقي بجانبه حين يموت؛ فنذهب معاً إلى الفردوس».

مرة أخرى تملّكني إحساس بالفراغ والقلق العظيم. إذ لا نفع لإرادتي ولوجودي هنا. أريد الخروج من هذه الغرفة المسكونة التي تضعف جسدي وعقلي. ولكن، لو حصلت على تفسير كافٍ، لخرجت فوراً.

عدت لأكرر سؤالي الأول:

- «أين هي أمك؟

- ذهبت.

- ومتى تعود؟

فأجابت الفتاة الصغيرة: - لن تعود.

لم أستطع الإلحاح أكثر من ذلك، فقد أدركت أن هناك نوعاً من المأساة العائلية المؤلمة والسرية. قلت محاولاً تغيير الموضوع:

- ووالدك؟ أين هو؟

- قد مات.

- كم مرة؟».

حدّقتْ فيّ بنظرة مشدوهة، ملؤها الشفقة واللوم، وهذا ما جعلني أحسّ سريعاً بتأنيب الضمير. بعد زمن بدا طويلاً، قررتْ أخيراً أن تفسّر لي التالي:

«أنت تتلفظ بحماقات، فعندما يموت الناس، يكون موتهم نهائياً. حتى الأطفال أنفسهم يعرفون ذلك».

من البديهي تماماً أن هذا هو المنطق بعينه.

أراني أحرزت تقدماً إذن، فكيف يعيش هذان الطفلان هنا وحيدَيْن دون أب أو أم؟ من الممكن أنهما يعيشان خارج هذا المكان، عند جديهما أو عند بعض الأصدقاء الذين تلقفوهما من قبيل العطف. ولكنهما مهملان على ما يبدو، وهذا ما يدعوهما إلى الجري يمنةً ويسرة طوال اليوم.

والمبنى المهجور هذا، الذي لا يحوي على كهرباء ولا على هاتف، ليس إلاّ ملعبهما المفضّل. سألتها:

- «أين تعيشان أنتِ وأخوك؟

- قالت: - جان ليس أخي. إنه زوجي.

- وهل تعيشين معه في هذا المنزل؟

- نحن نعيش أينما يحلو لنا. وإذا كنت لا تحب منزلنا، فلماذا أتيت إليه؟ نحن لم نطلب مساعدة من أحد».

إنها على حق بشكل عام. فأنا أجهل ما أنا فاعل هنا. حاولت تلخيص الموقف في ذهني: غيّرت طالبة طب مزيّفة طريقي لأسير في زقاق لم أختره؛ فلمحت صبياً يركض أمامي تماماً؛ ثم سقط، فأغمي عليه؛ فنقلته إلى أقرب ملجأ؛ وهناك وجدت فتاة صغيرة مفكِّرة ومتصوفة، أخذت تحدثني أحاديث ليس لها «أول من آخر» حول موضوع الغِيّاب والأموات. وبالنتيجة، قالت لي محدثتي: «إذا أردت رؤية صورته، فهي معلّقة على الجدار».

لكن كيف حزرتْ أنني ما زلتُ أفكر بأبيها؟ على الجدار الذي أشارت إليه بيدها، وبين النافذتين، عُلِّق إطار صغير من خشب الأبنوس، يحوي في الواقع على صورة رجل في الثلاثين من العمر، يرتدي لباس مساعد ضابط في البحرية، وقد انزلق غصن من شجيرة البقس(١) المباركة تحت الخشب الأسود.

---

(١) شجيرة البقس أو الشمشاد تغرس في الحدائق لتحديد تخومها (المترجمة).

- هل كان بحاراً؟

- طبعاً.

- وهل مات غرقاً في البحر؟

كنت متأكداً من أنها ستقول لي من جديد «طبعاً»، وهي تهز كتفيها بلا اكتراث. لكن في الواقع، كانت أجوبتها مخيّبة لما توقّعته. ففي هذه المرة، اكتفتْ بالتصحيح، كما تصحح معلّمة المدرسة أخطاء تلميذها: «لقد قضى غرقاً في البحر»، وهذا هو التعبير الصحيح المستخدم في موضوع الغرق. ومع ذلك، فإن مثل هذه العبارات المحددة مستغربة حين تصدر عن فتاة صغيرة في مثل سنّها. وفجأة، جاءني انطباع بأنها تردد درساً تحفظهُ. تحت الصورة، كتبتْ يد واثقة هذه الكلمات: «إلى ماري وجان، والدهما العزيز». التفتُ قليلاً إلى الفتاة الصغيرة قائلاً:

- هل اسمك ماري؟

- طبعاً. وماذا تريد أن تسميني غير ذلك.

بينما كنت أتفحص الصورة، أحسست فجأة بفخ يُنْصَب لي. لكن الفتاة الصغيرة كانت قد تابعت حديثها:

«وأنت، اسمك سيمون. هناك رسالة لك».

كنت قد لاحظت لتوّي وجود طرف أبيض ينزلق تحت غصن شجيرة البقس. ليس عندي وقت للتفكير في التعديلات المدهشة التي طرأت على سلوك ماري؛ فهي تحدثني الآن دون تكلّف وتعرف اسمي.

أخذت الرسالة بتأنٍ بين إصبعيّ، ونزعتها من الظرف دون تخريب أوراق شجيرة البقس. إن الهواء والنور يجعلان هذا النوع من الورق يصفَرّ بسرعة. إلاّ أن الورق الذي بين يدي لم يصفرّ ولم تخرّبه هذه الإضاءة الخفيفة، على ما يبدو لي؛ إذن لابد أنه لم يمضِ عليه وقت طويل هنا.

حمل المغلّف الاسم الكامل لمستلِم الرسالة: «السيد سيمون لوكور، الملقب ببوريس». هذا يعني أنه لا يحمل فقط اسمي الكامل، ولكنه يحمل أيضاً اسمي الحَرَكي الذي استخدمته في المنظمة التي لم يمضِ بضع ساعات على عملي لديها. ومما يدعو للدهشة أيضاً، أن الكتابة تشبه في كل شيء تلك التي استخدمت في الإهداء الموجود على صورة البحار، فهي تشبهها في استخدام الحبر ذاته والريشة ذاتها، بل إنها كتبت باليد ذاتها.

ولكن، في هذه اللحظة صرخت الفتاة الصغيرة بأعلى صوتها خلفي: «انتهى الأمر يا جان، بإمكانك أن تستيقظ، فقد وجد الرسالة».

التفتُّ إلى الخلف، فوجدت الصبي الميت ينهض فجأة ويجلس على حافة الفراش، ويدلّي ساقيه بجانب أخته السعيدة. أخذا يصفقان معاً ويتأرجحان من السعادة على السرير المعدني، الذي أخذ يهتز تحت وطأة ضحكاتهما خلال دقيقة تقريباً. فأحسست أنني أبله تماماً.

ثمّ عادت ماري لتأخذ سمة الجدية دون أي فترة انتقالية. وعلى الفور، قلّدها الصبي؛ فهو باعتقادي ينصاع لهذه الفتاة التي تبدو بشكل واضح أصغر منه سناً، لكنها أكثر منه فطنة. ثم صرّحت لي قائلة: «أنت الآن والدنا. أنا ماري لوكور وهذا هو جان لوكور». قفزت منتصبة على ساقيها لتدلّني على شريكها، بطريقة احتفالية وبانحناءة مبجّلة نحوي.

ثم ركضت نحو باب المنزل؛ وهنا، لابد أنها ضغطت على زر كهربائي خارج المنزل، ذلك لأن نوراً ساطعاً أضاء كل الغرفة في الحال، وكأنه النور الذي يضيء صالة المسرح في نهاية أحد فصول المسرحية.

المصابيح المتعددة والمعلّقات الضوئية القديمة بشكل عصافير، أصبحت في الحقيقة مرئية الآن بشكل واضح. لكن حين تكون غير مضاءة، يمكن للمرء ألاّ ينتبه إليها. بخفّة وحيوية، عادت ماري إلى السرير حيث جلست من جديد إلى جانب أخيها الكبير؛ وأخذا يتهامسان.

ثمّ، تطلّعا إليّ من جديد، وبدا عليهما وقتها الانتباه والحكمة والهدوء. فهما يريدان مشاهدة ما سيحصل بعد ذلك. إنهما في المسرح وأنا على خشبته ألعب دوراً في مسرحية غير معروفة كتبها لي شخص أجنبي... أو هل من الممكن أن تكون أجنبية؟

فتحت المغلّف الذي لم يكن ملصقاً. كان يحتوي على ورقة مطوية أربع طيات. ففتحتها بحذر؛ كان الخط هو الخط ذاته، خط شخص أعسر دون شك، أو بالتحديد، خط امرأة عسراء. قفز قلبي حين رأيت التوقيع... ولكني أدركت، فجأة بشكل أفضل، سبب حذري الغريزي، الذي ظهر منذ برهة حين قرأت الأحرف المخطوطة بشكل مائل وباتجاه معاكس تحت الصورة المحاطة بإطار أسود: فقليل من الناس في فرنسا يستخدمون اليد اليسرى في الكتابة وخاصة من هم من جيل هذا البحار. ليست الرسالة غرامية بالطبع، ولكن حين يقرأ المرء بضع كلمات يحسّها كثيرة، خاصة عندما تأتي من شخص فَقَدَه للتوّ وإلى الأبد.

عندها مُلِئْتُ حماسةً، فقرأت النص بصوت مرتفع على جمهوري الفتيّ وكأنني ممثّل كوميدي: «كان قطار أمستردام طريقاً مضلّلة بهدف تبديد الشكوك. المهمة الحقيقية تبدأ من هنا. الآن وبعد أن تعرّفتَ إلى الطفلين، فهما سيأخذانك إلى المكان الذي يجب أن تذهب إليه معهما. حظاً سعيداً».

كان التوقيع باسم «جان» أي دْجين وذلك لا يحتمل الخطأ أبداً. لكنني لم أفهم تماماً الجملة التي تتحدث عن الشكوك. شكوك مَنْ؟ طويت الورقة من جديد ووضعتها في المغلّف. صفقت ماري قليلاً وبحماسة، وبعد قليل، حذا جان حذوها ولكن دون حماسة. قال: «أنا جائع: أن يكون الإنسان ميتاً أمر متعب جداً».

وتوجّه الطفلان نحوي وأمسك كل واحد بإحدى يديّ بحزم. تركتهما يفعلان ما يشاءان ما داما سيمليان عليّ التعليمات. وهكذا خرجنا ثلاثتنا من الغرفة أولاً، ثم من المنزل كأننا عائلة تذهب في نزهة. أما الدَرَج والرواق والطابق الأرضي وصحن الدَرَج في الطابق الأول فكلها مضاءة بشكل ساطع الآن وذلك بواسطة مصابيح قوية. (مَنْ الذي أضاءها إذن؟).

بما أن ماري لم تطفئ النور ولم تغلق الباب عند خروجها، سألتها عن السبب ولم يكن جوابها لي مفاجئاً أكثر من كل هذا الوضع.

قالت: - لا بأس، طالما أن جانّ وجوزيف هنا.

- ولكن، من هما جانّ وجوزيف؟

- حسناً، جوزيف هو جوزيف، وجانّ هي جانّ.

- أكملت بنفسي جملتها قائلاً: طبعاً.

فشدتني من يدي نحو الشارع العريض وهي تمشي بخطى حيوية أو تقفز من حين إلى آخر على قدم واحدة على البلاطات غير المتساوية.

أما جان، فعلى العكس، كان يمشي مستسلماً بعض الشيء. وبعد عدة دقائق قال مردِداً: أنا جائع جداً.

- قالت ماري: حان وقت عشائه، يجب أن نطعمه شيئاً، وإلاّ فإنه سيموت مرة أخرى ونحن لم يعد لدينا الوقت لممارسة هذه اللعبة. ما إن أنهت كلماتها الأخيرة، حتى ضحكت ضحكة عالية وقصيرة وحادة ومثيرة للقلق. فهي مجنونة تماماً، كما هي حال معظم الأطفال العاقلين أكثر من اللازم. تساءلت، كم يبلغ سنّها في الواقع، فهي قصيرة وصغيرة، ولكن من المحتمل أنها أكبر من ثماني سنوات.

- ماري، كم عمرك؟

- ليس من التهذيب كما تعلم أن تسأل النساء عن أعمارهن.

- حتى في مثل سنك؟

- طبعاً. ليس هناك سنّ محددة للبدء بتهذيب النفس.

تلفظتْ بهذه الحكمة بلهجة حازمة دون أي ابتسامة ماكرة. هل تدرك، أم لا، عبثية تفكيرها؟ وفي الشارع العريض

انعطفتْ إلى اليسار وهي تجرنا وراءها، أنا وجان. بسبب خطواتها الحازمة كطبعها، لم نستطع توجيه أي سؤال على الإطلاق. أما هي فقد توقفت فجأة وفوراً، موجهةً نحوي نظرات قاسية، كي تسألني:

- هل تعرف الكذب؟

- أحياناً، عند الضرورة.

- أما أنا فأكذب جيداً، حتى لو كان ذلك غير مفيد. حين نكذب عند الضرورة، فهذا لا قيمة له طبعاً. باستطاعتي البقاء يوماً بكامله دون أن أقول شيئاً صادقاً. حتى إنني حصلت على جائزة الكذب في المدرسة في العام الماضي.

- قلت: تكذبين!!

لكنّ جوابي لم يجعلها تضطرب لو للحظة. وتابعت اندفاعها بهدوء وثبات:

- في درس المنطق، قمنا بتمارين على الكذب من الدرجة الثانية في هذه السنة. درسنا أيضاً الكذب من الدرجة الأولى، بمجهولَيْن. وأحياناً، نكذب بأصوات متعددة وهذا مثير جداً. وفي الصف الأعلى، تقوم الطالبات بالكذب من الدرجة الثانية بمجهولَيْن، وبالكذب من الدرجة الثالثة. لابدّ أنه أمر صعب، ولكني أتوق للوصول إلى الصف الأعلى.

بعد ذلك، وبشكل مفاجئ تماماً، عادت للسير أمامنا، أما الصبي فلم يفتح فاه؛ فسألتُ:

- أين نذهب؟

- إلى المطعم.

- هل لدينا وقت كافٍ.

- طبعاً، ماذا كتبوا لكَ في الرسالة؟

- أنك ستقودينني إلى حيث يجب أن أذهب.

- إذن، بما أنني أقودكَ إلى المطعم، فهذا يعني أنكَ يجب أن تذهب إلى المطعم.

هذا في الواقع لا يحتمل النقاش. كنا قد وصلنا أمام مقهى ومشرب.

دفعت الفتاة الصغيرة الباب الزجاجي بحزم وإصرار مدهشَيْن. دخلنا في إثْرها أنا وجان. تعرّفت فوراً إلى المقهى الذي قابلت فيه طالبة الطب ذات السترة الحمراء... ما زالت هنا، تجلس في المكان نفسه وسط الصالة الكبيرة الخالية. فوقفتْ حين رأتنا ندخل. اعتقدتُ جازماً أنها كانت تترقب عودتي. حين مرت بجانبنا، أشارت إلى ماري بإشارة سريعة ثم قالت بصوت منخفض:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- أجابت ماري بصوت مرتفع ودون انزعاج: لا بأس. وفجأة بعد ذلك أضافت قائلة: «طبعاً».

خرجت الطالبة المزيّفة دون أن تنظر إليّ. فجلسنا إلى إحدى الموائد المستطيلة في آخر القاعة. دون أي سبب واضح، اختار الطفلان منضدة خفيفة الإضاءة. يبدو أنهما يهربان من الإضاءة الساطعة. على كل حال، ماري هي التي تقرّر.

- قال جان: أريد بيتزا.

- قالت أخته: لا، فأنت تعرف جيداً أنهم يملؤونها عن قصد بالبكتريا والفيروسات. فقلت في نفسي، ما شاء الله! إن أساليب الوقاية من الأمراض تتقدم عند الفتيان، أو إن هذين الطفلين قد قامت بتربيتهما عائلة أميركية؟. بينما كان النادل يقترب منا، طلبت ماري وجبة «كروك مسيو»(١) لنا جميعاً، وكوبين من عصير الليمون، ونصف ليتر من البيرة للسيد، فهو روسي".

بينما كان الرجل يبتعد بصمت، كانت ماري تصطنع لي تكشيرات مخيفة بوجهها.

---

(١) وجبة خفيفة ساخنة مصنوعة من الخبز المحمّص والجبن والجـــامبون. (المترجمة)

- "لماذا قلتِ إنني روسي؟ إن الروس على كل حال لا يشربون مقادير من البيرة أكبر من تلك التي يشربها الفرنسيون أو الألمان...

- أنت روسي لأن اسمك بوريس. وأنت تشرب البيرة ككل الناس يا بوريس لوكوروفيتش! ".

بعد أن غيّرت اللهجة والموضوع معاً، رَنَتْ إليّ تهمس في أذني، متمتمة وكأنها تسارني:

- هل انتبهت إلى وجه نادل المقهى؟ إنه هو الذي في الصورة في زيّ البحار، ضمن الإطار الجنائزي.

- هل هو ميت حقاً؟

- طبعاً. قضى غرقاً في البحر، لكن شبحه عاد ليخدم في المقهى حيث كان يعمل في الماضي. لهذا فهو لا يتكلّم إطلاقاً.

- قلت: آه، فهمت.

ظهر النادل فجأة أمامنا وهو يرتدي السترة البيضاء، حاملاً معه المشروبات. شبهه لذاك البحار ليس واضحاً.

قالت له ماري ملاطفةً:

«أشكرك، ستمرّ أمي غداً لتدفع الحساب».

الفصل الرابع

فيما نحن نتناول وجبتنا، سألتُ ماري حول كيفية توظيف هذا النادل في المقهى قبل موته، طالما أنه كان بحاراً. لكنها لم تضطرب إطلاقاً، بل أجابت:

«كان هذا الأمر يتم خلال إجازاته طبعاً. إذ إنه حالما يحطّ رحاله، كان يأتي لرؤية عشيقته التي تعمل هنا. فيقدم الخدمات للزبائن حباً بها، كأقداح النبيذ الأبيض والقهوة بالقشدة. فالحب يصنع المعجزات.

- وماذا حلّ بعشيقته؟

- عندما جاء نبأ وفاة عشيقها المأساوي، انتحرت وذلك بتناول «البيتزا» الصناعية».

ثم أرادت ماري أن تستعلم مني عن كيفية حياة الناس في موسكو، بما أنها نسبت إليّ الجنسية الروسية.

فقلت لها إن عليها أن تكون على علم بذلك هي أيضاً، بما أنها ابنتي.

فاخترعت خُزَعْبَلات جديدة وبدأت تقصّ الحكاية: «ولكن ليس الأمر هكذا. لم نكن نعيش معك. فقد اختطفنا الغجر، أنا وجان، حين كنّا بعدُ رُضّعاً. فعشنا في عربة متنقلة وجُبْنا أوروبا وآسيا، نتسوّل ونغني ونرقص في السيرك. أما والدانا اللذان تبنيانا، فقد كانا يجبراننا على سرقة الأموال أو البضائع التي تعرض في المخازن. وحين كنا نعصى الأوامر، كانا يعاقباننا بقسوة: فكان على جان أن ينام على جهاز المتوازي وكان عليّ أنا أن أنام في قفص النمر. ومن حسن الحظ أن النمر كان لطيفاً جداً، ولكن كانت تراوده كوابيس في أحلامه، فيزأر طوال الليل، وهذا ما كان يجعلني أستيقظ مذعورة. في الصباح، عندما أستيقظ، لم أكن أحسّ قطّ بأنني أخذت كفايتي من النوم. وخلال هذا الوقت، كنتَ تجوب العالم بحثاً عنا. فتذهب كل مساء إلى السيرك وتطوف بين «الكواليس» لتستجوب كل الأطفال الصغار الذين تلتقي بهم، ثم تبحث كل مساء في سيرك جديد. لكن من المحتمل أنك كنت تحدّق في الفارسات بشكل خاص... ولم نلتق إلاّ اليوم فقط».

كانت ماري تتحدث بسرعة وبنوع من القناعة المتسرّعة وفجأة فترت حماستها؛ ففكرت لحظة وهي حالمة، ثم أنهت كلامها بحزن: «ونحن لسنا متأكدين بعدُ بأننا التقينا؛ فمن المحتمل ألاّ نكون طفليك وألاّ تكون أبانا أنتَ أيضاً...».

بعد أن أحست ماري بأنها تلفظت دون شك بما يكفي من الحماقات، صرّحتْ بأنه قد جاء دوري الآن لأحكي لهما قصة ما.

بما أنني أكلت أسرع من الطفلين، فقد أنهيت منذ حين وجبتي من «الكروك مسيو». أما ماري التي تمضغ كل لقمة ببطء وتأنٍ، في أثناء أحاديثها الطويلة، فيبدو أنها لم تكن قد شارفت إنهاء وجبتها. سألتها أي نوع من الحكايات ترغب في سماعه. إنها تريد - وهذا أمر مفروغ منه - قصة حب وخيالٍ علمي، وقد لفظت كلمة «خيال علمي» على الطريقة الفرنسية طبعاً. فبدأت أقص عليها قائلاً: «حسناً، يلتقي إنسان آلي بسيدة شابة...»؛ ولم تدعني مستمعتي أتمّ ما قلته؛ فقالت: «أنت لا تعرف كيف تقص الحكاية. فالحكاية الحقة يجب أن تتم حتماً في الزمن الماضي».

- كما تشائين. إذن، التقى رجل آلي بـــ...

- ولكن لا، ليس هذا النوع من الماضي يجب أن تكون الحكاية بالزمن الماضي الروائي وإلاّ لن يعرف أحد بأنها حكاية.

إنها على حق دون شك. فكّرتُ للحظات لأنني غير معتاد على استعمال هذا الزمن النحْويّ؛ وعاودتُ من جديد: "كان يا ما كان في قديم الزمان، في مملكة فرنسا الجميلة، كان هناك رجل آلي شديد الذكاء. وبالرغم من أنه مصنوع حصراً من المعدن، فقد قابل في حفلة راقصة في البلاط سيدة شابة وجميلة من

النبيلات. فرقصا معاً. قال لها كلمات منمّقة فاحمّرت وجنتاها خجلاً، فأبدى اعتذاره. ومن ثم عاودا الرقص سوياً. كانت تجده صلباً بعض الشيء، لكنه جذاب بحركاته المتصنّعة التي تعطيه تميّزاً خاصاً. وفي اليوم التالي تزوجا وتلقيا الهدايا الفخمة... ومن ثم ذهبا في رحلة شهر العسل.

هل أعجبتك؟ قالت ماري:

- لا بأس، فهي تصلح لتكون حكاية. على كل حال، استعمال الماضي البسيط كان صحيحاً.

- إذن، سأتابع. إن العروس الشابة واسمها (بلانش)[١]، تعويضاً عن لون شعرها الأسود الفاحم، كنت أقول... إن العروس الشابة كانت ساذجة ولم تلحظ الآلية المبرمجة لعريسها. ومع ذلك، كانت ترى بوضوح أنه يقوم دائماً بالحركات ذاتها، ويقول دائماً الأشياء ذاتها. فتفكر قائلة: ها هو إذن رجل ذو أفكار متسلسلة.

«ولكن، في أحد الصباحات، استيقظت أبكر من المعتاد، فرأته «يزيّت» ميكانيكية مفاصله في منطقة الورك في الحمّام، بواسطة «مزيتة» آلة الخياطة. وبما أنها كانت شديدة التهذيب لم تبدِ أي ملاحظة. ومع ذلك فقد ساور الشك قلبها منذ ذلك اليوم.

---

(١) بلانش = Blanche : تعني بيضاء. (المترجمة).

«تذكرت تفاصيل دقيقة لا تفسير لها: فكانت تسمع الصرير الليلي مثلاً الذي لا يمكن له فعلاً أن يصدر عن السرير، وذلك عند تقبيل زوجها لها في حرمة مخدعهما، أو تكتكة المنبّه التي كانت تملأ الفضاء من حوله.

«كانت بلانش أيضاً قد اكتشفت بأن عينيه الرماديتين غير المعبّرتين تصدران أحياناً إضاءات متواترة إلى اليمين أو إلى اليسار، كسيارة تحاول الانعطاف وتغيير اتجاهها. وهناك أيضاً بعض الإشارات الميكانيكية أدّت بها إلى شعورها بقلق غامر.

«أخيراً، تأكدت من شذوذ حقيقي شيطاني لديه، وهذا ما سبّب لها اضطراباً أكبر: لم يكن زوجها ينسى قط أي شيء! فذاكرته المدهشة المتعلقة بأقل الأحداث اليومية أهمية، بالإضافة إلى سرعته غير العادية في إجراء الحسابات الذهنية في نهاية كل شهر، حين كانا يجتمعان لحساب مصاريف البيت، أوحت لبلانش بفكرة ماكرة. أرادت إذن أن تعرف عنه أكثر وأن تعدّ خطة مكيافيلّية...».

في هذه الأثناء، أفرغ كل من الطفلين صحنه؛ بينما أنا في فورة غيظي في مكاني من شدة توقي إلى ترك هذا المقهى، لأعرف في النهاية إلى أين سنذهب بعد ذلك.

ولذلك، أسرعت في الوصول إلى نهاية القصة وقلت: "يا للأسف، اندلعت الحرب الصليبية السابعة عشرة في تلك اللحظة بالذات، واستدعي الرجل الآلي للخدمة في صفوف سلاح المشاة المستعمِر في الفيلق الثالث المدرَّع.

فأبحر من ميناء مارسيليا وذهب لمحاربة الفلسطينيين في الشرق الأوسط.

«وبما أن كل الفرسان كانوا يحملون دروعاً مزوّدة بمفاصل فولاذية لا تصدأ، فلم يعد أحد يفطن إلى الخصائص الفيزيائية للرجل الآلي. ولم يعدْ قط إلى فرنسا العذبة، ذلك لأنه مات عبثاً عند سور القدس، في مساء صيفي، دون أن يلفت نظر أحد. فقد فتح سهم مسموم أطلقه أحد الهراطقة ثغرة في زرَده الحديدي وسبّب خللاً في الدارة الكهربائية داخل دماغه الألكتروني».

امتعضت ماري وقالت: «النهاية غبية. كان لديك بعض الأفكار الجيدة، ولكنك لم تعرف استغلالها بذكاء. خاصة وأنك لم تستطع في أي لحظة أن تجعل من شخصيات حكايتك شخصيات حيّة وجذابة. حين مات البطل في النهاية، لم يتأثّر المستمعون إطلاقاً.

فقلت لها ممازحاً: ألم تتأثري أنت حين مات البطل؟».

على أي حال حظيت هذه المرة بابتسامة جميلة عابثة من أستاذة الرواية شديدة الصرامة. وقد أجابتني باللهجة الساخرة ذاتها:

« تملكني مع ذلك نوع من السرور من الإنصات إليك، يا صديقي العزيز، حينما حكيت لنا عن هذه الحفلة التي تعرّفا فيها إلى بعضهما بعضاً وتغازلا. وعندما فرغنا، أنا وجان من تناول عشائنا، أسِفْنا لأنك اختصرتَ حينها قصتك: شعرنا فوراً بتعجّلك المفاجئ...». ومن ثم غيّرت لهجتها قائلة: «سأدرس مستقبلاً من أجل أن أصبح بطلة روائية. إنها مهنة جيدة، وهذا يمكّنني من العيش في الزمن الماضي البسيط الروائي. ألا ترى أن هذا أجمل؟.

- فقال أخوها في هذه اللحظة: ما زلت جائعاً، وأنا الآن أرغب بقطعة بيتزا».

من المحتمل أن يكون هذا مزاحاً، لأنهما ضحكا معاً. لكني لم أفهم السبب. لابد وأن يكون هذا جزءاً من «الفلوكلور» الخاص بهما. ساد بعد ذلك صمت طويل بدا لي كأنه فجوة زمنية أو كأنه مساحة بيضاء بين فصلَيْ كتاب. واستنتجت أن شيئاً جديداً سيحدث دون شك. فانتظرت.

بدا رفيقاي الصغيران ينتظران أيضاً. أمسكتْ ماري بسكينها وشوكتها، وأخذت تتسلّى للحظة بجعلهما تتوازنان الواحدة في مقابل الأخرى وذلك بجمع طرفيهما إلى بعضهما؛ ثم وضعتهما على شكل صليب وسط المائدة.

كانت جدية جداً في هذه التمارين الخفيفة التي قامت بها بدقة محسوبة، لدرجة أنها اكتسبت بنظري قيمة لإشارات سحرية مبّطنة. للأسف، لا أعرف طريقة تأويل هذه الإشارات، ربما ليس لها معنى حقيقي. تستمتع ماري ككل الأطفال والشعراء باللعب بالمعنى واللامعنى. حين انتهى بناؤها، ابتسمت لنفسها، وشرب جان كأسه حتى آخر قطرة. وسكتا معاً. ماذا ينتظران هكذا؟. إن الولد هو الذي كسر الصمت قائلاً:

«لا، لا تخشَ شيئاً؛ طلبتُ البيتزا لإغاظتك. على كل حال، منذ عدة أشهر لا يُباع هنا في هذا المقهى سوى «الكروك مسيو» والشطائر. تتساءل حضرتك ماذا ننتظر هنا، أليس كذلك؟

ببساطة أجيب، لم تحن ساعة السير بعد. الآن سنذهب».

يتكلم هذا الصبي مثل أخته، وكأنه شخص بالغ راشد. لكنه زيادةً عليها يستعمل الصيغة التفخيمية في حديثه معي. منذ أول لقاء لنا قبل أكثر من ساعة لم يتكلّم كثيراً بقدر ما تفوّه به الآن. لكني الآن فقط فهمت لماذا كان يصمت بمثل هذا العناد.

في الحقيقة، قد بدأ صوته يتغير في أوج تحوّله؛ فهو يخشى السخرية من نبرة صوته المتكسرة التي تظهر فجأة وسط الجمل التي يتلّفظ بها. وهذا ربما ما يفسِّر سبب ضحكه هو وأخته: فلا بد أن كلمة «بيتزا» تحوي جَرْساً مريعاً لحباله الصوتية.

أعطتني ماري أخيراً تتمة برنامجنا: فهي نفسها مضطرة للعودة إلى البيت (أيّ بيت؟) لتقوم بوظائفها (هل هي وظائف الكذب؟)، بينما سيقودني أخوها إلى اجتماع سري، حيث سأتلقى تعليمات محددة. لكن من جهتي يجب ألا أعرف مكان هذا الموعد. وبالتالي، سيجعلوني أتنكر بزي أعمى وذلك بوضع نظارات سوداء ذات زجاجات معتمة تماماً.

ازدادت غرابة الاحتياطات والأمور الغامضة التي تلف بها هذه المنظمة السرية نشاطاتها، أكثر فأكثر. ولكنني مقتنع بأن هناك جزءاً كبيراً من اللعب، وعلى كل حال، قررت متابعة التجربة إلى النهاية. من السهل تخمين السبب. تصنّعتُ عندئذ بأنني وجدت الظهور شبه العجائبي للأدوات الضرورية لتنكري، وهي النظارات المذكورة، وكذلك العصا البيضاء، أمراً طبيعياً. ذهب جان لإحضارها بهدوء من زاوية في المقهى، حيث كانت بانتظار من يأخذها، بجانب الركن الذي كنا نأكل فيه.

كان الطفلان قد اختارا بشكل بديهي هذه الطاولة غير المريحة وسيئة الإنارة بسبب قربها مباشرة من مخبئهما هذا. لكن من وضع هذه «الأكسسوارات» هنا؟ جان، أم ماري، أم الطالبة ذات السترة الحمراء؟.

لابد أن هذه الأخيرة قد تبعتني منذ مغادرتي ورشة عارضات الأزياء حيث استخدمتني دْجين ومن الممكن أن تكون هي التي

أتت بالعصا والنظارات. لقد تبعتني إلى أن وصلتُ إلى هذا المشرَب حيث دخلتْ في إثري بعد عدة ثوانٍ. وكان بإمكانها أن تضع فوراً هذه الأشياء في تلك الزاوية قبل جلوسها إلى طاولة قريبة من طاولتي.

مع ذلك، فأنا مندهش لكوني لم ألحظ هذه التحركات قط. حين اكتشفت وجود الطالبة كانت جالسة تقرأ بهدوء كتابها الضخم في التشريح. لكني كنت أستمتع في تلك الأثناء بتخيلاتي العاطفية النشوى والغامضة التي ربما كانت تضرّ بإحساسي بالأمور الواقعية.

هناك مسألة أخرى أربكتني أكثر. فأنا الذي أردت أن أشرب فنجان قهوة في هذا المشرَب، أما الطالبة المزيّفة فلم تفعل شيئاً سوى أنها تبعتني إلى هنا. بينما كان بإمكاني، على السواء، اختيار مكان آخر في الجادّة لأدخله (وحتى ألاّ أشرب القهوة). كيف يمكن للطفلين في هذه الظروف أن يعلما مِنْ شريكتهما المتواطئة عن المكان الذي سيجدان فيه العصا والنظارات؟

من جهة أخرى، كانت ماري تتحدث إلى النادل عند وصولها، كما لو أنها تعرفه جيداً. كما أن جان يعرف تماماً ما هي الوجبات المتوفرة من بين الوجبات المعروضة للتضليل في القائمة المعلّقة فوق «البار». وأخيراً، ادعيا بأن أمهما ستأتي

قريباً كي تسدّد حساب وجبتنا، بينما كان من الممكن أن يتركاني أسدد هذا المبلغ المتواضع. ولم يبدِ نادل المقهى أي اعتراض. فهو يثق بشكل واضح بهذين الطفلين، اللذين تصرّفا تماماً كأنهما من روّاد هذا المقهى.

جرى كل شيء إذن وكأنني دخلت هنا صدفةً تماماً في هذا المشرَب الذي يمثِّل بالنسبة لهما مطعماً شعبياً ومقراً للقيادة العامة. هذا شيء غير معقول. ومع ذلك، يبدو أيضاً التفسير الآخر الممكن أكثر غرابة: لم يكن الأمر "صدفة"، لكن، على العكس، إذ اقتادتني المنظمة ذاتها إلى هذا المقهى دون معرفتي، من أجل أن أقابل الطالبة التي كانت تنتظرني هنا.

لكن في هذه الحالة كيف «اقتادوني»؟ بأيّ أسلوب؟ بأيّ طريقة غامضة؟ وكلما تعمّق تفكيري في كل هذا، قلّ وضوح الأشياء بالنسبة لي، وازداد استنتاجي بوجود لغزٍ ما هنا... لو أنني أستطيع أن أحلّ أولاً مشكلة علاقة الطفلين بطالبة الطب... للأسف، لن أستطيع حلّ أي شيء على الإطلاق.

بينما كنت أفكّر بهذه الأمور، وضع جان وأخته النظارات على عينيّ. إن الحواف المطاطية المغلِّفة لإطار النظارات تناسب بشكل ممتاز جبيني وصدغَيْ ووجنتَيْ. لاحظت مباشرة أنني لم أكن أستطيع رؤية شيء من الجانبين، ولا من تحت النظارات، ولم أكن أميّز أيضاً أي شيء من خلال زجاج النظارات الكثيف العتمة حقاً.

أنا والطفل، نمشي الآن على الرصيف جنباً إلى جنب. كنا نمسك بيدَيْ بعضنا بعضاً. وبيدي الحرة اليمنى، مددت العصا البيضاء إلى الأمام وكان رأسها يمسح الفراغ أمامي بحثاً عن عوائق محتملة. وبعد بضع دقائق، استطعت استخدام هذا «الأكسسوار» بشكل طبيعي تماماً.

بينما أنا منقاد هكذا كالأعمى، تأمّلت هذا التقهقر المتنامي المدهش لحريتي، منذ دخولي، الساعة السادسة والنصف مساءً إلى عنبر عارضات الأزياء المليء بالسلع المكدّسة والآلات غير المستعملة، إلى حيث كان «السيد جان» قد دعاني.

لم أقبل هنا فقط إطاعة أوامر فتاة في مثل عمري (أو حتى أصغر مني سناً)، بل قمت بذلك أيضاً تحت تهديد السلاح المخيف (المفترض على الأقل أنه موجود)، الذي كان يدمّر عندي كل انطباع بوجود خيار طوعي. بالإضافة إلى ذلك، قبلت دون كلمة اعتراض أن أبقى جاهلاً تماماً مهمتي المحددة و الأهداف المبتغاة لهذه المنظمة. لم أعانِ قط من كل هذا؛ قد شعرت، على العكس، بسعادة وارتياح. ثم، وفي المقهى، أجبرتني طالبة غير محببة، بمظهرها كمحققة أو كمعلّمة، على اتخاذ درب لم يبدُ لي أنه الأفضل. قادني هذا إلى العناية بجريح مزعوم رابض على الأرض فاقد الوعي، ولكنه كان في الحقيقة يتلاعب بي.

حين علمت بذلك، لم أتشكَ من هذه العملية غير الشرعية. ورأيت نفسي فوراً هذه المرة أطيع طفلة لم تبلغ الأعوام العشرة بعد، كاذبة بالإضافة إلى هوسها أيضاً بالتخيّلات الكاذبة. في آخر المطاف، انتهى بي الحال إلى قبول حتى مسألة عدم استخدام عينَيْ بعد أن فقدت بالتدريج استخدام إرادتي الحرّة وذكائي.

ووصل بي الأمر إلى أنني بدأت أتصرّف من الآن فصاعداً دون أن أفهم شيئاً مما أفعله ولا مما يحدث لي، ودون أن أعرف حتى وجهتي بقيادة هذا الطفل القليل الكلام والمصاب بالصرَع ربما. لم أحاول قط مخالفة التعليمات بالغش قليلاً عن طريق محاولة النظر من خلال تلك النظارات السوداء. إذ يكفي دون شك أن أزيح الإطار قليلاً بحجة حك حاجبي، بحيث أوجِدُ فُرجة بين الحافة المطاطية والأنف...

لكني لم أقم قط بمثل ذلك. فقد أردت أن أكون عميلاً غير مسؤول. ولم أخشَ من عَصْب عيني. قريباً، إذا كان هذا يرضي دْجين، سأصبح أنا نفسي نوعاً من الإنسان الآلي البدائي. أنا أرى نفسي منذ الآن جالساً على كرسي للمُقْعَدين، أعمى، أبكم، أصم... ولا أدري ماذا أيضاً! ابتسمت لإثارة هذه الفكرة. فسألني جان – «لماذا تضحك»؟.

أجبته إن وضعي الحالي يبدو لي مضحكاً. فردد الولد حينئذ مستشهداً بقول هو جملة سمعتها مسبقاً من فم أخته، حين كنا في المقهى: «قال – الحب يصنع المعجزات».

اعتقدت بادئ الأمر أنه كان يسخر مني، وأجبت بشيء من الانزعاج، ذلك لأنني لم أكن أرى صلة بين قوله وبين ما يحدث لي. لكن، بعد إعمال التفكير، بدت لي، بشكل خاص، ملاحظة الصبي هذه غير قابلة للتفسير. كيف عرف بهذا الأمل العاطفي (شبه العبثي، والسري في كل الأحوال) الذي تجرأتُ على الإفصاح به لنفسي فقط؟

فأردف، بصوته المتراوح دوماً بين النبرة القوية والحادة، قائلاً: «بلى، هناك علاقة واضحة: الحب أعمى، هذا معروف. ويجب عليك على كل حال ألاّ تضحك: فكون المرء أعمى، هذا أمر محزن».

كنت سأسأله فيما إذا كان يستنتج إذن أن الحب أمر محزن (وما ينتج، بمنطق قياسي بامتياز، عن هاتين العبارتين المتعلقتين بصفة العمى،)، حين وقع حَدَث أنهى حديثنا.

وقفنا منذ لحظات، على حافة الرصيف (كنت قد تحسست حافة الحجر بواسطة الرأس الحديدي لعصاي) واعتقدت أننا ننتظر الإشارة الضوئية التي تسمح للمشاة بعبور الطريق. (إذ لا يوجد لدينا إشارة موسيقية للمكفوفين، كما هي الحال في كثير من مدن اليابان). لكني كنت مخطئاً.

لابد أن هذا المكان محطة «تاكسي»، حيث وقف جان ينتظر قدوم سيارة خالية من الركاب.

جعلني في الواقع أركب سيارة كبيرة إلى حدّ ما على ما يبدو لي، مستنتجاً ذلك من سهولة اجتيازي لبابها وأنا أتلمّسه. (تركت عصاي لدليلي)، وجلست على ما يفترض أن يكون المقعد الخلفي العريض والمريح. خلال جلوسي، أغلق جان الباب، ولابد أنه دار حول السيارة من أجل أن يركب هو من الباب الأيسر: سمعت صوت فتح الباب ودخول أحدهم إلى داخل السيارة ليجلس بجواري. وهذا الشخص هو الصبي لاشك، لأن صوته ذا النبرة المتراوحة التي لا تُقَلَّد، قال للسائق:

«سنذهب إلى هناك، لو سمحت».

وسمعت في الوقت نفسه صوت حفيف ورق خفيف. بدل الإعلان شفهياً عن المكان الذي نرغب في الذهاب إليه، من المؤكد أن جان قد مدّ إلى السائق قصاصة من ورق كتب عليها العنوان (ولكن من كتبه؟).

تركني هذا التدبير الملتوي في جهل تام لوجهتنا. بما أن الطفل هو الذي استخدم هذه الطريقة، لم يُدْهَشِ السائق لذلك.

وما العمل لو لم نكن في سيارة «تاكسي»؟!.

الفصل الخامس

بينما كانت السيارة تسير، فكّرت من جديد بعبثية وضعي، لكني لم أنجح في التوصل إلى قرار بإنهائه. كان هذا العناد يفاجئني، أنا ذاتي. كنت ألوم نفسي رغم استمتاعي بهذا العناد. لا يمكن للاهتمام العاطفي الذي أكنّه لِدْجين أن يكون هو وحده السبب. فلا شك أن للفضول دوراً؛ وماذا هناك أيضاً؟.

كنت أحسّ بنفسي منقاداً بسلسلة من الحلقات واللقاءات التي لا تلعب فيها الصدفة أي دور دون شك. فأنا فقط مَنْ كان غير قادر على الربط بينها وبين السببية العميقة. جعلني هذا الغموض المتتابع أفكّر بنوع من البحث الحثيث عن كنز ما: إذ كنا ننتقل من لغز إلى آخر، ولا نستطيع كشف الحل إلاّ في نهاية الأمر؛ وكانت دْجين هي الكنز!.

تساءلت أيضاً عن نوع العمل الذي تنتظره المنظمة مني. هل كانوا يخشون شرح ذلك لي بشكل واضح؟ هل هي مهمة لا يمكن الإفصاح عنها إلى هذه الدرجة؟ ماذا كانت تعني هذه البدايات الطويلة؟ ولماذا كانوا يتركون لي حيّزاً قليلاً جداً للمبادرة؟

كنت آمل أن يكون غياب المعلومات هذا مؤقتاً فقط: قد يكون عليّ المرور في البدء بهذه المرحلة الأولى، حيث يضعونني فيها تحت التجربة. هكذا يصبح البحث الحثيث عن الكنز في فكري الروائي، كرحلة كشف المعرفة.

أما بالنسبة لتحويلي الجديد إلى هذه الشخصية التقليدية الكفيفة التي يقودها طفل، فكان يمثّل دون أدنى شك نوعاً من إيقاظ شفقة الناس، ومن ثم تخدير حَذَرهم.

لكن كي لا ألفت انتباه الناس إليّ، كما أمروني سابقاً بشكل قطعي، تبدو لي هذه الطريقة مشكوكاً بصحّتها.

بالإضافة إلى ذلك، كنت قلقاً باستمرار من موضوع محدد من بين المواضيع التي تشغلني: أين كنا ذاهبين في هذه اللحظة؟ أي الطرق، وأي الشوارع كنا نسلك؟ إلى أي الضواحي كنا نتوجه هكذا؟ إلى أي كشف، أو إلى أي سرٍّ جديد؟ وهل ستكون الطريق الموصلة طويلة؟.

هذه النقطة الأخيرة بخاصة - وهي المدة التي نستغرقها في السيارة لإكمال مسارنا - كانت تزعجني دون سبب محدّد. هل كان جان مخوّلاً ليقول ذلك لي؟ وسألته صدفة. لكنه أجابني بأنه هو نفسه لا يعرف شيئاً، وهذا ما بدا لي أكثر غرابة أيضاً (في حال صدَّقتُ كلامه على الأقل).

والسائق الذي كان يستمع إلى كل ما نقوله، تدخّل عندئذ لطمأنتي قائلاً: «لا تهتم. سنصل قريباً».

لكنْ، على العكس، لاحظت من خلال هاتين الجملتين، ولا أعرف لماذا، تهديداً غامضاً. على كل حال، هذا لا يعني الشيء الكثير. أنصتُ إلى ضجيج الشارع من حولنا، لكنه لم يعطِني أي إشارة حول الأحياء التي نجتازها. من الممكن مع ذلك، أن تكون فيها حركة السيارات أقل من المعتاد.

ثم قدّم لي جان سكاكر بالنعناع. وأجبته بأنني أريد واحدة منها فعلاً. لكن، كان هذا من باب التهذيب ليس إلاّ. فلمس ذراعي اليسرى قائلاً: «هاك. أعطني يدك».

فمددت له يدي، راحة مبسوطة. فوضع فيها سكرة ذائبة دبقة قليلاً، كما يحتفظ كل الأطفال بسكاكر كهذه في جيوبهم. فلم تعد لديّ الرغبة فيها على الإطلاق، لكني لم أكن أستطيع البوح بذلك للعاطي:

فبما أني قَبِلتُ السكّرة، فمن المستحيل أن أعيدها إليه.

أدخلتها في فمي بقرف كامل. وفوراً، وجدت طعمها غريباً، فهي مرّة ولا طعم مميزاً لها. رغبت أشد الرغبة ببصقها. لكني لم أفعل، حتى لا أزعج الولد. فبما أني لا أراه، كنت لا أعرف أبداً إن كان يراقبني أم لا.

كنت أكتشف هنا مفارقةً للعمى: لا يمكن للكفيف أن يفعل شيئاً في الخفاء! فالتعساء الذين لا يرون يخشون دائماً من كونهم يُرَوْن. لكي أهرب من هذا الإحساس المزعج، وفي ردة فعل غير منطقية تماماً، أغلقتُ عينيّ من خلف نظاراتي السوداء.

نمت؛ أنا مقتنع تماماً بذلك، أو على الأقل استغرقت في النعاس. لكن لا أعرف كم من الوقت دام ذلك! قال الصبي: «استيقظ، سننزل هنا».

وكان في الوقت نفسه يهزّني قليلاً. شككت الآن بهذه السكرة من النعناع ذات الطعم المشبوه، أن تكون سكرة مخدّرة، ذلك لأنني لم أعتد قطّ على النوم هكذا في السيارة. لقد خدّرني صديقي جان، هذا أكثر من محتمَل، كما، لابد أنه تلقى الأوامر بذلك. وبهذه الطريقة، لم أعرف الوقت الذي استغرقته الطريق التي سرنا فيها وأنهيناها للتوّ.

توقفت السيارة وكان دليلي قد دفع ثمن الرحلة (هذا إن كنا فعلاً في سيارة أجرة وقد بدا لي هذا الأمر غير مؤكد إطلاقاً). فلم أعد ألحظ أي حضور للسائق. وانتابني شعور غامض بعدم وجودي في السيارة ذاتها.

لقد عانيت كثيراً في استعادة وعيي. وكان الظلام المغموس فيه يجعل استيقاظي أكثر صعوبة وأقلّ وضوحاً أيضاً. في الوقت الذي كنت أحلم فيه بأنني أخرج من حالة النوم انتابني انطباع بأن نعاسي يطول. ولم أعد أملك أي فكرة عن الوقت. «أسرِع. لقد تأخرنا».

نفذ صبر ملاكي الحارس وأفهمني ذلك دون مواربة، بصوته العجيب المتبدّل. سحبت نفسي بصعوبة من السيارة، ووقفت متأرجحاً على قدَمْي. فشعرت بدوار كما لو أنني شربت كثيراً.

قلت: «أعد لي الآن عصاي».

وضعها الصبي في يدي اليمنى، وأمسك بعد ذلك باليسرى، كي يقودني بحزم.

«لا تسرع هكذا. ستجعلني أفقد توازني.

- إذا كنت ستسير ببطء، فسنصل متأخرين.

- أين نذهب الآن؟

- لا تسألني. ليس لي الحق بأن أقول لك. وليس للمكان اسم أساساً».

على كل حال، المكان هادئ جداً. وخيّل إليّ أنه لم يعد هناك أحد من حولنا. فأنا لا أسمع كلاماً ولا دوس أقدام. إننا نمشي على البحص. ثم تتغيّر الأرضية. لقد عبرنا عتبة ودخلنا مبنى.

وهنا، أخذنا نمشي في مسار معقد جداً، بدا أن الصبي يحفظه عن ظهر قلب، ذلك لأنه لم يتردد قط عند تغييّر الاتجاه.

بعد المرور فوق بلاط العتبة، اجتزنا أرضية من الخشب.

ربما هناك إنسان آخر الآن يرافقنا أو بالأحرى يسبقنا لكي يدلّنا على الدرب. في الواقع، إذا ما توقفتُ لبرهة، فإن دليلي الصغير الذي يمسك بيدي يتوقف أيضاً، وهكذا أظن أنني أميّز خطوة ثالثة تسبقنا قليلاً وتتابع سيرها خلال بضع ثوان. ولكن هذا يصعب إثباته. قال الصبي «لا تتوقف».

وبعد أمتار قليلة: «انتبه، وصلنا إلى درجات السلّم. أمسك «الدرابزين» باليد اليمنى. وإذا كانت عصاك تزعجك، أعطني إياها».

غريزياً، لا، أفضّل ألاّ أتركها له. فأنا أتوقع خطراً يقترب. أمسكت "الدرابزين" الحديدي باليد ذاتها التي كانت تمسك بالقبضة المحنية للعصا. ووقفت مستعداً لكل الاحتمالات. إن حدث فجأة شيء مقلق للغاية، فأنا جاهز لنزع نظاراتي السوداء بيدي اليسرى (التي يمسك بها الصبي بيده برخاوة)، وللتلويح بيميني بعصاي الحديدية سلاحاً للدفاع عن النفس.

لكنْ، لم يحدث أي شيء ينذر بالخطر. بعد أن صعدنا طابقاً واحداً، على سلّم حادّ الانحناء، وصلنا حالاً إلى قاعة يُعقَد فيها اجتماع على ما يبدو. فنبهني جان لذلك قبل الدخول مضيفاً بصوت منخفض: «لا تحدث ضجة. فقد وصلنا متأخرين. ويجب ألاّ يلحظنا أحد».

فتح الباب بهدوء فتبعته، وهو ما زال ممسكاً بيدي كأني طفل صغير. هناك أناس كثيرون في الغرفة: عرفت ذلك فوراً من الضجيج المتنوّع، الخفيف والمتعدد، فهناك التنفس والسعال المكبوت وحفيف الأقمشة، والصدمات الدقيقة أو الانزلاقات الخفية والعابرة، والنعال التي تحتك بشكل غير ملحوظ بالأرضية...إلخ.

مع ذلك، بقي هؤلاء الناس كلهم جامدين، فقد كنت متأكداً من ذلك. ولكنهم دون شك، بقوا واقفين، يتحركون قليلاً في مكانهم، فهذا إجباري. بما أنّ أحداً لم يُشِرْ إليّ أين أجلس، فلم أفعل ذلك أنا أيضاً. لم يقل أحد شيئاً من حولنا.

وفجأة، في هذا الصمت المكتظ بوجود أناس عديدين يصغون باهتمام، حصلت المفاجأة المنتظرة أخيراً. دْجين هنا في القاعة، وارتفع صوتها الجميل على بُعْدِ أمتار مني. فشعرت فجأة أنّي كوفئت على صبري.

قالت: «قد جمعتكم من أجل إعطائكم القليل من الشرح الضروري من الآن فصاعداً». تخيلتها واقفة على المنصة هي أيضاً تواجه جمهورها. هل هناك منضدة أمامها، كما في قاعة الصف؟ وماذا ترتدي؟ هل ترتدي، كما عهدتها، معطفها الواقي من المطر وقبعتها اللبادية؟ أم أنها خلعتهما من أجل هذا الاجتماع؟ وهل احتفظت بنظاراتها السوداء؟

ولأول مرة، تحرّقت شوقاً لنزع نظاراتي. لكنّ أحداً لم يسمح لي بذلك بعد، وليس الوقت مناسباً الآن على كل حال، أمام كل هؤلاء الجيران الذين بإمكانهم رؤيتي، إضافةً إلى دْجين ذاتها... عليّ إذن الاكتفاء بما أعطي لي: بصوتها العذب ذي اللكنة الأميركية الخفيفة.

«...منظمة سرية عالمية... تصنيف المهمات... عمل إنساني كبير...».

ما هو العمل الإنساني الكبير؟ عن ماذا تتكلم؟ وفجأة، وعيت ضعفي: لم أعد حتى أستمع إلى ما تقوله! بما أنني منجذب إلى لهجتها الغريبة الجميلة، ومنهمك تماماً بتخيّل وجهها وفمها الذي يصدر هذه اللهجة (متسائلاً هل تبتسم؟ أم أنها تحاول أن تتخذ ملامحها المزيّفة، رئيسةً للعصابة؟)، فقد حذفتُ الأساسي: ألا وهو الاهتمام بالمعلومات المتضمنة في كلماتها؛ فقد كنت أتذوقها بدلاً من تسجيل معناها. في حين كنت أدّعي شغفي بالاستعلام أكثر عن عملي المقبل!

وها هي دْجين تسكت الآن. ماذا قالت للتوّ بالتحديد؟ حاولت عبثاً تذكّره. لديّ فكرة غامضة أن الموضوع كان يتمثّل بجمل ترحيبية فقط، وترحيب بالانضمام إلى المنظمة، وأن الأهم لاشكّ قادم.

لكن لماذا سكتت؟ وماذا يفعل المستمعون الآخرون خلال هذا الوقت؟ لا أحد يتحرك من حولي، ولا أحد يعبّر عن أي دهشة.

كانت نغزات ملحّة تزعج عيني اليمنى، لا أدري إن كان ذلك بسبب الانفعال. فهناك تقلصات حادة في جفني لم أستطع التخلص منها.

حاولت إيجاد طريقة خفية لحكها. يدي اليسرى ما زالت في يد الصبي، الذي لا يتركني، واليمنى مشغولة بالعصا. مع ذلك، ولأنني لم أعد أحتمل هذا، حاولت بيدي اليمنى أن أحك ما يحيط بعيني على الأقل.

بسبب انزعاجي من القبضة المحنية للعصا قمت بحركة خرقاء، فانزلق الإطار السميك للنظارات إلى الأعلى، على حدود الحاجبين. في الواقع، لم يتغيّر مكان النظارات إلاّ قليلاً، إلاّ أن الفاصل الموجود بين بشرتي والحرف المطاطي كان مع ذلك كافياً كي يجعلني ألحظ ما هو موجود إلى يميني تماماً... بقيت مشدوهاً. لم يخطر ذلك على بالي قط... حرّكت رأسي على مهل كي أستطلع أكبر مساحة ممكنة من خلال مجال الرؤية الضيق عندي. وما رأيته في كل الاتجاهات أكد دهشتي الأولى: كان انطباعي أنني موجود أمام صورتي ذاتها، متكررة عشرين أو ثلاثين مرة.

فالقاعة كلها مليئة في الواقع بالمكفوفين... ومن المحتمل أنهم مكفوفون مزيّفون أيضاً: إنهم شباب في مثل سني يرتدون بطرق مختلفة (ولكن إجمالاً، أشكالهم قريبة من شكلي)، بالنظارات الكبيرة السوداء ذاتها على العينين، بالعصا البيضاء ذاتها في اليد اليمنى، وصبي يشبه دليلي تماماً، يمسك بكل واحد منهم بيده اليسرى.

توجهوا جميعاً في الاتجاه ذاته إلى المنصة. وكل زوج من المكفوفين ودليله - معزول عن جيرانه بمسافة متساوية تقريباً، كأنما هناك اهتمام بإيجاد سلسلة من التماثيل الصغيرة المتشابهة ضمن أماكن محددة بدقة.

وفجأة عصر قلبي شعور غبي بالغيرة: لم تكن دْجين إذن توجّه الحديث إليّ! كنت أعرف تماماً بأنه اجتماع يضم أناساً عديدين، لكن بدا الأمر مختلفاً حين لاحظت بأم عيني أن دْجين قد جمعتْ دزينتين أو ثلاثاً من الشباب الذين يشبهونني تقريباً، وعاملتهم كلهم بالطريقة ذاتها. إذن، أنا لا أشكّل شيئاً مغايراً بالنسبة لها سوى أني الشخص الأكثر تفاهةً من بين الحضور.

في هذه اللحظة بالذات، استأنفت دْجين حديثها. وقد استأنفته بشكل غريب جداً، من منتصف جملة دون أن تردد الكلمات السابقة للحفاظ على تكامل الموضوع. ولم تقل شيئاً من أجل تبرير هذا القَطْع؛ فلهجتها هي ذاتها، وكأن شيئاً لم يكن.

«...ستمكِّنكم من عدم إثارة الشكوك...». بعد أن تخليت عن كل حذر (وكل خضوع للتعليمات التي لم أعد أحتملها فجأة)، استطعت تحريك رأسي، بشكل كافٍ، ومَدَّ عنقي وذلك برفع ذقني كي يكون مركز المنصة ضمن مجال الرؤية عندي...

لم أفهم مباشرة ماذا يحدث... لكن، لا بدّ أني سأكتشف الحقيقة فوراً:

فهناك منضدة للمحاضِرة، لكن ما من أحد يقف خلفها! دْجين ليست هنا إطلاقاً، وليست في أي مكان آخر من القاعة.

إنه فقط مكبِّرَ الصوت الذي يبثّ خطابها المسجّل، لكن لا أدري أين سُجّل ومتى. الجهاز موضوع على المنضدة، بشكل مرئي تماماً بلا أدنى استحياء. ربما توقف المكبّر بسبب عطل فني طارئ: إذ كان العامل يتحقق من سلامة الأشرطة التي عاد فوضعها قيد العمل...

اختفى في لحظة واحدة كل الجاذب الموجود في هذا الصوت العذب والحسي. لا شك أن تتمة التسجيل ما زالت بالجودة ذاتها: وتابعت الكلمات نغماتها الجميلة الآتية من وراء الأطلسي؛ قد نقلت آلة التسجيل بأمانة الرنين واللحن وحتى أقلّ الذبذبات... لكن، بما أن وهم الوجود المحسوس قد تلاشى، فقد فقدتُ كل

علاقة حسية بهذه الموسيقى التي كانت عذبة في مسامعي قبل دقيقة فقط. فاكتشافي للخديعة قد قطع الأثر السحري للحديث الذي أصبح فجأة كامداً وبارداً: إذ تعيده آلة التسجيل الآن على مسامعي بحياديةِ صوت بشري مجهول يذيع إعلاناً في المطار. مع ذلك، فمن الآن وصاعداً، لم يعد يصعب عليّ الإنصات للجمل واكتشاف معانيها.

ما زال الصوت دون الوجه، يشرح لنا دورنا ووظائفنا القادمة. ولكنه لا يكشف لنا تماماً كافة المهام، بل يعطينا الخطوط العريضة فقط. فهو يهتم بالأهداف المرجوّة أكثر من الطرق التي تؤدي إليها: ويقول الصوت من جديد، إنه حرصاً على الفعالية، يفضّل أن لا يكشف لنا الآن إلاّ الأمور الضرورية فقط.

قلت إنني لم أتابع جيداً بداية العرض. لكن، يبدو لي مع ذلك أنني استطعت إدراك الأمر الأساسي: فما أسمعه الآن يترك لي على كل حال فرصة افتراض معناه، لأنني لا أرى فيه غموضاً تاماً (باستثناء ما أرادته المحاضِرة أن يبقى كذلك).

إذن، أعلمتنا بأننا تورطنا أنا وجيراني، في مشروع دولي للنضال ضد مفهوم الآلية. بعد تبادل قصير للرسائل مع صندوق بريد، فإن قراءة الإعلان الصغير في الجريدة الذي قادني إلى لقاء دْجين في الورشة المهجورة، كان قد أوحى لي بهذه الفرضية. لكنني لم أقدّر تماماً نتائج الصيغة المستخدمة فيه: «من أجل حياة أكثر حرية وتحرراً من إمبريالية الآلات».

في الواقع ، إن أيديولوجية المنظمة هي أيديولوجية بسيطة جداً، حتى إنها تبدو ساذجة في الظاهر : « حان الوقت للتحرر من الآلات، لأنها هي التي تقمعنا وليس سواها. يعتقد الناس أن الآلات تعمل لأجلهم، بينما هم الذين يعملون في خدمتها من الآن فصاعداً. وكلما ازدادت أوامر الآلات لنا ازدادت طاعتنا لها أكثر فأكثر.

«بادئ ذي بدء، إن فكرة الآلية مسؤولة عن تقسيم العمل إلى أجزاء دقيقة دون أي معنى. فيلزم للآلة – الأداة أن يُتِمّ كلٌّ عامل حركة وحيدة، عليه تكرارها من الصباح وحتى المساء طوال حياته. فالتقسيم إذن واضح في الأعمال اليدوية. لكنه يتحول أيضاً إلى قاعدة في أي نوع آخر من النشاط الإنساني.

"هكذا في كل الحالات، فإننا لا نستطيع إدراك النتيجة النهائية لعملنا إطلاقاً (أهي شيء مصنَّع، أم خدمة، أم دراسة فكرية؟). فالعامل لا يعرف أبداً الشكل النهائي الكامل لهذا العمل، ولا الهدف من استخدامه إلاّ بشكل نظري و تجريدي محضٍ. ولا يتحمّل أي مسؤولية عن هذا العمل كما إنه لا فضل له في إنجازه إطلاقاً.

إنه ليس إلاّ حلقة تافهة من سلسلة التصنيع العظيمة، تضيف تعديلاً تفصيلياً فقط على القطعة المنفصلة وعلى القطعة الأساسية المنعزلة، واللتين لا تعنيان شيئاً إطلاقاً بحد ذاتهما.

«ما من أحد في أي مجال يستطيع إنتاج شيء كامل. وضمير الإنسان ذاته مشتّت. لكن لنعترف بالأمر التالي: إن خضوعنا للآلة هو الذي جلب الرأسمالية والبيروقراطية السوفييتية وليس العكس. إن تقسيم الكون كله إلى ذرات هو الذي ولّد القنبلة الذرية.

«مع ذلك، في بداية هذا القرن، كانت الطبقة الحاكمة، وهي الوحيدة التي أنقذت نفسها، ما تزال تحتفظ بسلطتها في اتخاذ القرار. ومن الآن فصاعداً، فإن الآلة التي تفكِّر - أي الحاسوب - قد سرقتْ منا هذه السلطة أيضاً. لم نعد إلا عبيداً نعمل لتدميرنا الذاتي في خدمة إله الميكانيك القدير، ومن أجل مجده الأعظم».

أما بالنسبة للوسائل التي يجب استخدامها من أجل جعل جموع البشر تعي هذا الأمر، كانت دْجين أكثر غموضاً وأقلّ وضوحاً. وقد تكلّمت عن «الإرهاب السلمي» وعن الفعل «المسرحي» الذي علينا نحن تنظيمه بين جموع الناس وفي المترو والساحات العامة والمكاتب والمعامل...

مع ذلك، هناك ما صدمني في كلماتها الجميلة: إنه القدر الذي هُيِئَ لنا نحن عملاء تنفيذ هذا البرنامج: فدورنا يناقض تماماً أهدافنا المقترحة. حتى الآن على الأقل، لم يوضِحوا لنا هذا البرنامج قط، بل استخدمونا دون أي مراعاة لخيارنا الحرّ. والآن أيضاً، يبوحون لنا بأن المعرفة الجزئية لكامل الموضوع هي

المسموح لنا بها فقط. يريدون تربية وعينا وضميرنا، لكنهم يبدأون بمنعنا من الرؤية. والطامة الكبرى أخيراً، هي الآلة التي تحدثنا وتقنعنا وتقودنا...

اجتاحني الحذر من جديد. شعرت وكأنّ خطراً مجهولاً وغامضاً يحوم حول هذا الاجتماع المزيّف. هذه القاعة المليئة بالمكفوفين المزيّفين هي فخ وجدتُني أقع فيه...

من خلال الفرجة الضيقة التي صنعتها بعناية تحت الحافة اليمنى لنظاراتي الضخمة، ألقيت نظرة إلى جاري الأقرب إليّ، وهو شاب طويل أشقر يرتدي سترة من الجلد الأبيض أنيقة جداً، تظهر تحتها كنزة صوفية ذات لون أزرق زاهٍ...

هو أيضاً (كما كنت قد خمّنت قبل لحظات) قد جعل نظاراته المُحكمة التي تعميه، تنزلق بعض المليمترات من أجل أن يلمح ما يدور من حوله إلى يساره؛ حتى إن نظراتنا المواربة قد التقت، وأنا واثق من ذلك. أشار إليّ بحركة تشنجية في فمه كأنها غمزة تآمرية. فأجبته بحركة مشابهة بالفم المنفرج يمكن اعتبارها ابتسامة موجّهة إليه.

خُيِّل إليّ بأن الصبي المرافق له الذي يمسك بيده اليسرى، لم يلحظ شيئاً من مناورتنا. وجان الصغير أيضاً لم يلحظ شيئاً بالتأكيد، لأنه كان موجوداً بشكل واضح خارج إطار هذا التبادل البسيط للحركات. خلال تلك الفترة، استمرّ هذا الخطاب المملّ موجَّهاً إلينا بحدّة:

«الآلة تراقبكم؛ فلا تخشوها من الآن فصاعداً! الآلة تأمركم؛ فلا تطيعوها! الآلة تطالبكم بكل وقتكم؛ فلا تعطوها إياه! الآلة تعتقد أنها تفوق البشر، فلا تفضلوها عنهم من الآن فصاعداً!».

ورأيت حينها أن الشخص ذا السترة البيضاء الذي احتفظ هو أيضاً بعصا الكفيف في يده اليمنى، قد مررها بشكل خفي خلف ظهره إلى يساره، بشكل يقرّب فيه مني نهايتها المدببة. وبطرفها الحديدي، رسم دون إحداث ضجة إشارات معقدة على الأرض.

بالتأكيد، يحاول هذا الزميل ذو المراس الصعب مثلي أن ينقل لي رسالة ما. إلاّ أني لم أستطع فهم ما يريد قوله لي. ردّد لي عدة مرات، السلسلة ذاتها من الخطوط القصيرة والمنحنيات المتشابكة. عبثاً حاولت بعناد فكّ تلك الرموز؛ فمن المؤكد أن زاوية رؤيتي الجزئية جداً للأرضية، إضافة إلى ميلانها البالغ، لم تسهّل لي هذا الموضوع قط. وتابع الصوت المسجّل قائلاً:

«اكتشفنا حلاً بسيطاً لإنقاذ إخوتكم. دعوهم يطّلعون عليه.

أدخلوه في عقولهم دونما إنذار، أي تقريباً دون أن يعرفوا بذلك. واجعلوا منهم، هم أنفسهم، دعاة له...».

في هذه اللحظة، أحسست بحركة فجائية خلفي. فقد قطع صمت القاعة ضجيج خطوات متسارعة قريبة جداً. وشعرت بضربة قوية على قاعدة جمجمتي وبألم مبرح...

الفصل السادس

استيقظ سيمون لوكور، فوجد نفسه وسط الصناديق المتراكمة فوق بعضها والآلات غير المستعملة، وأحسّ بفمه جافاً كالعجين، كأنه قد أكثر من شرب المشروبات الكحولية. عاد إليه وعيه شيئاً فشيئاً، وتملّكه انطباع غامض بأنه خرج من كابوس طويل. تعرّف مباشرة إلى الديكور المحيط به. كانت الورشة المهمَلة التي تعرّف فيها إلى دْجين. وعادت إلى ذهنه فوراً نقطة بداية مهمته؛ فكّر قائلاً لنفسه: «يجب أن أذهب إلى محطة الشمال وأن أسرع أيضاً لأنه من المهم جداً أن أصل في الوقت المحدد لوصول قطار أمستردام. إذا لم أتمّم بشكل صحيح مهمتي الأولى هذه، فإنني أخشى كثيراً ألاّ يثقوا بي في ما بعد، وألاّ يسمحوا لي بالتقدّم أكثر في هذا العمل...».

لكن، كان سيمون لوكور يحسّ، بشكل غامض، بأن قصة المحطة هذه والقطار والمسافر الذي يجب اللحاق به، هي قصة مضت وعفا عليها الزمن: فهذا المستقبل كان ينتمي إذن إلى الماضي. كان شيء ما يشوّش الزمان والمكان. ولم يستطع سيمون قط تحديد وضعه في هذا الجو. ماذا حدث له؟ متى؟

وأين؟ من جهة، كان يجد نفسه في هذه اللحظة مطروحاً أرضاً دون أن يتوصل إلى معرفة السبب، وسط الغبار وبقايا أشياء مختلفة متراكمة فوق أرض الورشة بين المواد والأجهزة المهمَلة. ومن جهة أخرى، كان قد حلّ الضحى. فالشمس ارتفعت في سماء نهار ربيعي جميل، وكانت تسطع من الخارج، فتنير مربعات زجاج النوافذ المغبرّة؛ بينما على العكس، كان الليل يهبط عندما ظهرت له دْجين، في هذا المكان المهمَل ذاته، بمعطفها الواقي من المطر وبقبعة رجاليّة.

تذكّر سيمون فجأة مشهداً حدث مؤخراً كان يسترجعه بدقة متناهية: صبي في الثانية عشرة من عمره، ميت دون شك وذلك بسبب جموده التام ووضعيته المتخشبة الساكنة ولونه الشمعي، كان يرقد بلا حراك على سرير حديدي، دون فراش مع صليب كبير على صدره، وتحت إضاءة مهتزة لثلاث شمعات في شمعدان نحاسي...

تبع ذلك صورة أخرى بالوضوح ذاته والسرعة ذاتها: فهذا الصبي نفسه الذي يرتدي دائماً ملابس من القرن الماضي، يقود كفيفاً، ويمسك بيده اليسرى. كان العاجز الأعمى يمسك بيده الأخرى المقبض المعوّج لعصا بيضاء تساعده في التعرّف على موطئ قدميه. كانت نظارات سوداء كبيرة تخفي نصف وجهه. كما أنه يرتدي سترة جلدية ناعمة بيضاء ذات سحّاب لامع ومفتوحة على كنزة صوفية زرقاء زاهية.

جالت في خاطر سيمون لوكور فكرة مفاجئة. وضع يده على صدره، فلم يجد تحت أصابعه الصليب المصنوع من الأبنوس (بالرغم من أنه هو الذي اضطجع على ظهره بوضعية الصبي ذاتها في الليلة الجنائزية تلك)، لكنه لاحظ وجود السترة البيضاء المصنوعة من صوف الحَمَل وكنزة الكشمير. لقد تذكّر أنه اختارهما لموعده هذا المساء، مع أن تلك الثياب الزرقاء والبيضاء الأنيقة والمهمَلة في آنٍ معاً، لم تبدُ له مناسبة تماماً لبحثه عن عمل...

فقال في نفسه: «لكن لا، لا يمكن أن يكون الموعد هو ذاته هذا المساء. فهذا المساء لم يحلّ بعد، وقد انقضى هذا الموعد. إذن، من المحتمَل أنه كان البارحة مساءً... أما بالنسبة لهذين المشهدين اللذين يظهر فيهما الصبي ذاته، فمن المؤكد أن المشهد الثاني قد سبق الأول، وذلك لأنه في المشهد الأول، كان الصبي يرقد على سرير الموت... لكن من أين أتت هذه الصور؟».

لم يكن سيمون يعرف ما إذا كان عليه أن يضفي على تلك الصور حيّز الذكريات، مثلما يفعل بأحداث مرت في حياته الحقيقية؛ أم ما إذا كان عليه مطابقتها بالأحرى بتلك الوجوه التي تتشكّل في الأحلام وتعبر أذهاننا لحظة اليقظة، وبصورة عامة حسب تسلسل زمني معكوس.

على كل حال، هناك فجوة زمنية في برنامجه. يبدو، في الواقع، من الصعب أن يكون سيمون قد نام أكثر من إثنتي عشرة ساعة في هذا المكان غير المريح... إلاّ إذا كان السبب في ذلك هو المخدّر أو الأدوية الأشد تأثيراً... ولم يكن يعلم من أين أتت صورة جديدة، تدفقت في غفلة من الزمن إلى ذاكرته المختلّة: زقاق طويل يمتد مستقيماً، سيء التبليط، قليل الإضاءة بفوانيس قديمة، بين سياج متهاوٍ، وجدران صمّاء وبيوت صغيرة شبه متهالكة... ومن جديد، كان ينبثق من أحد البيوت الصبي ذاته، فيخطو راكضاً خمس خطوات أو ست ثم يتمدد في بقعة من الماء ضاربة إلى الحُمرة...

وقف سيمون لوكور بصعوبة. شعر بجسمه متيبساً، منزعجاً، وبرأسه ثقيلاً. ففكر قائلاً: «يجب أن أشرب القهوة وأن أتناول قرصاً من الأسبرين». كان يتذكّر بأنه شاهد في طريقه وهو آتٍ من الشارع العريض القريب جداً من هنا، عدة مقاهٍ ومشارب. نفض سيمون قليلاً براحة يده بنطاله الأبيض المتغضن والمشوّه والملطخ بالغبار الأسود، لكنه لم يستطع بالطبع أن يعيد للبنطال مظهره الطبيعي.

وحين أدار ظهره ليذهب، رأى شخصاً آخر ممدداً على الأرض، على بعد أمتار منه، في وضعية مشابهة. لم يكن الجسد ظاهراً بكامله: إذ كان صندوق ضخم يغطي الكتفين والرأس.

اقترب سيمون بحذر فقفز حينما اكتشف الوجه: إنه وجه «دْجين» دون أدنى شك في ذلك. كانت الشابة ممددة بحيث تعترض السبيل إلى الممر، ما تزال مرتدية معطفها الواقي من المطر والمزرّر، ونظاراتها الشمسية وقبعتها اللبادية الطرية التي، ويا للغرابة، لم تسقط عند وقوعها، وقد طُعِنت حتى الموت بسكين أو قتلت برصاصة من مسدس. لم يكن هناك جرح مرئي، لكن هناك بقعة دم متخثر قد ظهرت من تحت صدرها وسالت فوق الإسمنت الضارب للسواد لتحيط بالكتف الأيسر. مرت دقائق طويلة قبل أن يقرر سيمون التحرّك. كان يمكث هنا دون حراك ودون أن يفهم ما يجري، وأيضاً دون أن يوحي إليه المشهد بما يجب عليه أن يفعل. أخيراً، انحنى متجاوزاً رعبه، وحاول لمس يد الجثة...

لم تكن يد الجثة متحجرة وباردة فقط، بل بدت له قاسية ومتصلّبة جداً، حتى ليعتقد المرء بأنها ليست من لحم ودم ولا تحوي مفاصل بشرية. من أجل تبديد شكوكه الأخيرة، وبالرغم من انكماش غير قابل للتفسير منعه من التصرف، فقد كان يرغم نفسه أيضاً على لمس الأعضاء والقسم العلوي من الجسد وبشرة الخدين والشفتين...

إن الصناعية الظاهرة لهذا الجسد قد أقنعت سيمون تماماً باحتقار ما يشاهده وهو الشعور ذاته الذي راوده قبل ساعات عند

وصوله: فقد كان من جديد أمام عارضة الأزياء الكرتونية. مع ذلك، فإن البقعة الحمراء الداكنة لم تكن من مادة بلاستيكية: تلمّس سيمون بطرف أصابعه خاصية هذه البقعة قليلة الرطوبة واللزوجة. لم يكن من الممكن مع ذلك التأكد من كونها دماً حقيقياً أم لا.

كان كل ذلك يبدو عبثياً بالنسبة لسيمون لوكور؛ ومع ذلك فقد كان يخشى بشكل غامض، من وجود تفسير دقيق لما يتراءى أمامه من صور، بالرغم من أنه لم يلتقط هذا المعنى قط... فدمية الأزياء المقتولة كانت ترقد في المكان ذاته الذي وجدت فيه دْجين حين قابلها بشكل سريع مساء البارحة؛ بالرغم من أن سيمون تذكّر تماماً أنه رآها في تلك المرة في الطابق الأرضي... إلاّ إذا كان يخلط الآن بين المشهدين المتعاقبين: المشهد الذي وُجِد فيه مع دْجين والآخر مع الدمية عارضة الأزياء.

قرر الذهاب سريعاً خوفاً من حدوث ألغاز أخرى تعقّد المشكلة أكثر. فلديه حتى الآن ما يكفي من المشاكل للتفكير بها ساعات عدة. لكن على كل حال، كلما أعمل تفكيره فيها ابتعد أكثر عن مفتاح حلّها.

نزل السلّم. وفي الطابق الأرضي، وجد صورة طبق الأصل عن دْجين وهي في مكانها المعتاد دائماً، متكئة بلا مبالاة على الصناديق ذاتها، واضعة يديها الاثنتين في جيبَيْ معطفها، تكاد لا تُظهِر ابتسامة جامدة على شفتيها الشمعيتين. إذن في الأعلى هناك دمية أزياء أخرى شبيهة لهذه تماماً.

أما الابتسامة الخفيفة الساخرة على الفم، فلم تكن تشبه على الإطلاق ابتسامة جين فرانك. كان سيمون يعاني فقط من انطباع مزعج مفاده بأن هناك من يسخر منه. فهز كتفيه بلا مبالاة، وتوجّه نحو الباب الزجاجي الذي يطلّ على الباحة.

... وقبل أن يجتازه، انتصبت قليلاً عارضة الأزياء المزيفة ووسّعت من ابتسامتها. أخرجت يدها اليمنى من جيب معطفها الواقي من المطر، ورفعت يدها إلى وجهها ونزعت بهدوء نظاراتها السوداء... وبانت من جديد عيناها الخضراوان الصافيتان...

لقد كان سيمون نفسه يتصور هذه المخاتَلة الأخيرة وهو مستمر في طريقه. لكنه لم يتكلّف عناء الالتفات من أجل قطع الشك باليقين، فلطالما كان متأكداً من أنه لم يرَ هذه المرة سوى أمريكية من متحف الشمع في باريس (متحف غريفان).

اجتاز الباحة وعَبَر البوابة الخارجية، ثم في نهاية الزقاق، وصل كما هو متوقع إلى الشارع الكبير العريض المليء بالمارّة. وشعر سيمون بارتياح كبير، كما لو أنه دخل أخيراً عالم الواقع بعد غياب لا نهائي عنه.

ربما يكون الوقت ظهراً، وذلك حسب موقع الشمس في السماء. وبما أن سيمون لم يكن قد أدار ساعة يده(١) في الوقت

(١) كانت ساعة اليد تُدار يدوياً لتُعبّأ بالطاقة بواسطة برغيها الصغير، أما اليوم فأصبحت تعمل بالبطارية. (المترجمة)

المحدد في الليلة الماضية، فلابد أنها توقفت حتماً عن العمل، وقد لاحظ ذلك للتوّ. بعد أن عادت إليه ثقته بنفسه، أخذ يخطو الآن خطوات حيوية. لكنه لم يرَ أي مقهى أو مشرب. مع أنه يذكر بأن الشارع كان يحوي العديد منها على طول الطريق. ربما سيشاهد المقاهي، في واقع الأمر، بعد خطوات قليلة. دخل في أول مقهى صادفه.

تعرّف سيمون إلى المكان فوراً: فهنا كان قد شرب القهوة السادة، وذلك بعد خروجه لأول مرة من الورشة المهجورة. لكن الكثير من الزبائن كانوا موجودين اليوم فوجد سيمون صعوبة في الحصول على طاولة خالية. ثم اكتشف واحدة أخيراً في زاوية معتمة، فجلس إليها ووجهه للقاعة. إن نادل الأمس الصامت ذا السترة البيضاء والبنطال الأسود، لم يكن في الخدمة اليوم، اللّهم إلاّ إذا كان قد ذهب لإحضار بعض الوجبات الساخنة من المطبخ. كانت في مكانه امرأة مسنّة ترتدي قميصاً رمادياً. فتوجهت إلى الزبون الذي دخل أخيراً كي تلبي طلبه. فقال لها سيمون بأنه يرغب فقط بفنجان من القهوة المكثفة مع كأس من الماء العادي. حين عادت إليه تحمل صينية عليها فنجان صغير أبيض وإبريق ماء وكأس كبيرة، سألها، بأقصى لا مبالاة استطاع التعبير عنها، فيما إذا كان النادل موجوداً اليوم. لم تجبه فوراً، كما لو أنها كانت تفكر بالسؤال؛ ثم قالت والقلق يعمّ صوتها:

- «عن أي نادل تتحدث؟

- عن الرجل ذي السترة البيضاء الذي يخدم هنا عادةً.

- فقالت: أنا دائماً أخدم الزبائن. لا يوجد شخص آخر حتى في أوقات الازدحام.

- ولكن مع ذلك، فقد رأيت بالأمس...

- بالأمس، لم يكن بإمكانك رؤية أي شيء، فقد كان يوم العطلة».

ثم ابتعدت لمتابعة خدمة الزبائن بسرعة. لم تكن لهجتها سيئة بصراحة، لكنها كانت مليئة بالتعب وحتى بالتعاسة. وأخذ سيمون يراقب ما حوله. هل اختلط عليه الأمر بمقهى آخر مشابه لهذا؟

عدا عن وجود العديد من الزبائن من عمال وموظفين صغار من الجنسين، فإن الشبه بين المكانين في كل الحالات يدعو إلى الاضطراب: فالحاجز الزجاجي هو ذاته الذي يفصل القاعة عن الرصيف، والطاولات هي ذاتها ومرتبة بشكل متشابه؛ والزجاجات الموضوعة خلف سدّة المحاسبة المصنوعة من التوتياء، تصطف بالطريقة ذاتها، والإعلانات الصغيرة ذاتها كانت تعتلي الصف الأعلى منها. واحدة من تلك الإعلانات كانت تعرض الوجبات السريعة ذاتها: شطائر وكروك مسيو، وبيتزا... إلخ.

ففكر سيمون قائلاً: «بالرغم من أنهم لم يعودوا يقدمون البيتزا هنا منذ زمن بعيد». ثم دهش من كون هذا التأكيد قد ظهر له فجأة وبقوة. شرب قهوته دفعة واحدة. وبما أن التعرفة المعلنة كانت تحدّد أسعار البيتزا، فبإمكان المرء دون شك أن يطلب واحدة. لماذا اعتقد سيمون عكس ذلك فجأة؟ فهو لم يكن يملك بالطبع أي معلومة خاصة تسمح له بهذا الاعتقاد.

لكن، بينما هو يتفحص باقي اللوحات المثبتة في الحائط خلف البار، جذبت انتباهه صورة فوتوغرافية ذات أبعاد صغيرة، محاطة بإطار أسود، ثبتت هنا أيضاً في هذا المكان، لكن أبعد قليلاً وبجانب لوحة التعليمات التي تمنع بيع المشروبات الكحولية للقُصَّر. تملكه فضول لم يكن هو نفسه يستطيع تفسيره، فنهض سيمون لوكور بحجة الذهاب إلى دورات المياه، وانعطف قليلاً من أجل أن يمرّ بجانب الصورة. وهنا توقف كأنه توقف صدفة، كي يتفحصها عن قرب.

كانت هذه الصورة تمثِّل رجلاً في الثلاثين من عمره، ذا نظرة واضحة لكن مُقلِقة، يرتدي لباساً عسكرياً بحرياً، أو بالأحرى، لباسَ ضابط صف. وكان وجهه يذكِّر سيمون بشيء ما... فجأة، فهم لماذا جذبته الصورة: إنها صورة نادل المقهى الذي كان قد خدمه البارحة.

يحيط بالصورة تماماً من الجهة اليمنى غصن من شجيرة البقس المقدسة، وقد انزلق تحت الإطار الخشبي الأسود. وبعد أن يبس هذا الغصن بفعل الزمن، فإن أعناق الأغصان المغبرّة قد فقدت نصف أوراقها. تحت الصورة، وفي الهامش الأبيض المصفرّ، خُطَّت كتابة باليد اليسرى على ما يبدو، تحمل هذا الإهداء: «لماري وجان، والدهما العزيز».

قالت الخادمة: «هل اللباس العسكري هو الذي يشغل بالك؟».

لم يكن سيمون قد سمعها تقترب. كانت المرأة ذات القميص الرمادي تنظّف الكؤوس خلف سدّة المحاسبة فأضافت:

«إنه أبي هذا الذي تنظر إليه. كان روسياً».

وسيمون الذي لم يكن قد انتبه حتى الآن، وجد بأن اللباس في الواقع لا ينتمي إلى البحرية الفرنسية. لكن بما أن شخصية الصورة لا ترتدي القبعة العسكرية، فلم يظهر الفارق مباشرة. لكي يشارك في الحديث، سأل بغباء فيما إذا كان البحّار قد مات في البحر:

فصححت له السيدة: «لقد قضى غرقاً في البحر.

- هل اسمك ماري؟

فأجابت وهي تهزّ كتفيها: طبعاً!».

نزل إلى القبو حيث دورات المياه التي تفوح منها رائحة كريهة. أما الجدران المدهونة بلون سكري، فقد كان الزبائن يستخدمونها لكتابة آرائهم السياسية عليها، ومواعيد أعمالهم وتهويسهم الجنسي. قال سيمون في نفسه، من المحتمل أن إحدى هذه الرسائل موجّهة إليه؛ مثلاً، رقم الهاتف هذا الذي يتكرر باستمرار، والمكتوب بقلم أحمر في كل الاتجاهات: (٢١ -٤٣ - ٧٦٥). كانت الأرقام سهلة الحفظ على كل حال.

عند عودته إلى مكانه، ركّز نظره على الزاوية الداخلية التي تشكّلت من تلبيسة من الخشب المستعار، خلف الكرسي الذي كان يشغله مباشرة. فوجد عصا بيضاء تشبه العصا التي يستخدمها المكفوفون، مستندة إلى الركن. لم يكن هذا الفاصل المُضَاء بشكل سيء قد لفت نظره عند وصوله. فمن المحتمل أن تكون العصا موجودة قبل دخوله. عاد سيمون لوكور ليجلس على كرسيه. وخلال مرور الخادمة الحزينة بقربه أومأ إليها قائلاً:

«سيدتي، أعطني قطعة بيتزا من فضلك.

- لم نعد نحضّرها هنا منذ عدة أشهر... - أجابت السيدة ذات الرداء الرمادي – فلقد مَنَعَتنا مديرية الصحة من بيعها".

أنهى سيمون شرب كأس الماء ودفع ثمن القهوة، واتجه نحو باب الخروج؛ عندها تذكّر شيئاً ما.

تلفّظ بصوت منخفض قائلاً: «كدت أنسى عصاي». لم تكن أي طاولة أخرى أقرب من طاولته إلى العصا حتى يُعتَقَد بأنها لزبون غيره. عاد سيمون أدراجه بسرعة، فأخذ العصا البيضاء دون تردد، وعَبَر القاعة المليئة بالناس وعلى وجهه علامات السكينة، ممسكاً بها تحت ذراعه الأيسر. وخرج دون أن يبدو القلق على أحد من هذا الأمر.

قرب باب المقهى، كان بائع متجوّل يعرض على الرصيف أمشاطاً مصنوعة من الأصداف المزيفة وبعض السلع الصغيرة الأخرى التي لا قيمة لها. بالرغم من أنها بدت له غالية بشكل مبالغ فيه، إلاّ أن سيمون لوكور قد اشترى نظارات سوداء ذات زجاج عريض جداً ولون داكن جداً. أعجبه إطار النظارات وشكله المغلّف. كانت شمس الربيع الساطعة تزعج عينيه، وهو يكره أن تخترق الأشعة المائلة الفتحات الجانبية الكبيرة.

فوضع نظاراته حالاً وكانت تناسبه تماماً. دون أن يعرف السبب - ربما السبب هو اللهو فقط - أغمض سيمون عينيه في ظل عدساته السوداء، وأخذ يمشي متلمساً الطريق المعبّدة أمام موطئ قدميه بواسطة مقدمة عصاه المدببة الحديدية، وكان يشعر بنوع من الارتياح. طالما أنه ما زال يتذكر توضّع الأماكن من حوله، فقد استطاع التقدم دون كبير عناء بالرغم

من أنه كان عليه التخفيف من سرعته شيئاً فشيئاً. وبعد عشرين خطوة، لم يعد يحسّ بالعوائق المحيطة به. أحسّ بنفسه تائهاً تماماً فتوقف، لكنه لم يفتح عينيه. فوضعه كضرير كان يمنع الناس من مزاحمته.

«يا سيد، هل تريد أن أساعدك في العبور؟». كان هذا صبياً صغيراً يوجّه إليه تلك الكلمات. استطاع سيمون دون عناء أن يقدّر عمره تقريبياً، لأن فئة صوته كانت تنتمي بشكل واضح إلى حقبة تغيّر الصوت بسبب سن البلوغ. ومن سماع صوته استطاع، إضافة لذلك، تحديد طول قامة الصبي بدقة أدهشت هذا العاجز المزيّف.

أجاب سيمون: «نعم شكراً، أرغب بذلك». فأمسك الولد بيده اليسرى بعذوبة وقسوة.

قال: «انتظر قليلاً، فالإشارة خضراء، والسيارات تسير مسرعة في الشارع».

استنتج سيمون بأنه قد توقف عند حافة الرصيف تماماً. قد انحرف كثيراً إذن عن مساره الأصلي خلال بضعة أمتار. مع ذلك، كانت التجربة تشده وتسحره أيضاً؛ فأراد متابعتها إلى أن تنهيها صعوبة لا يمكن تجاوزها.

لقد علّم دون عناء، بالرأس الحديدي للعصا، زاوية الحافة الناتئة من الغرانيت والمنحدر الذي يجب الهبوط عليه للوصول إلى قارعة الطريق. كان عناده الغبي يفاجئه هو نفسه: «لابد أنني أعاني من عقدة أوديب المحرّمة[1]». هكذا قال لنفسه وهو يبتسم، بينما كان الصبي يجرّه إلى الأمام، حين أخلت السيارات أخيراً الطريق للمارة. لكن مالبثت الإبتسامة أن تلاشت، حيث طردها تفكير داخلي:

«يجب عليّ ألاّ أضحك، فمن المحزن أن يكون الإنسان كفيفاً»...

إن الصور الضبابية التي ظهرت له تتضمن صبية صغيرة بفستان أبيض متغضن ومشدود إلى خصرها بشريط عريض، وبعد أن اهتزت هذه الصورة للحظات في ذكرى غير قابلة للتحديد، انتهى بها المطاف إلى أن فُرِضَتْ على بطانة أجفانه المغلقة...

...

وقفتْ جامدة ضمن إطار الباب. ولم يترك «الديكور» المعتم جداً من حولها عملياً إمكانية تمييز أي شيء. كان يبرز من خلال الظلمة الثوب الشفّاف الأبيض والشعر الأشقر

---

(١) من المعروف أن أوديب، بعد أن تأكد أنه قتل والده وتزوج من والدته، فقأ عينيه بيده وخرج من مملكته، تقوده ابنته أنتيغون. (المترجمة)

وشحوب وجهها. وتحمل الطفلة أمامها وبيديها شمعداناً كبيراً ذا فروع ثلاثة من النحاس الأصفر المصقول واللامع؛ إلاّ أن شمعاته الثلاث كانت مطفأة.

...

تساءلتُ مرة أخرى من أين أتت هذه الصور. فهذا الشمعدان قد ظهر مرة في ذاكرتي. كان موضوعاً على كرسي ومشتعلاً في تلك المرة، بالقرب من سرير صبي صغير ممدد على فراش الموت...

لكننا أتينا الآن من الجهة الأخرى للطريق، وأخشى أن يتركني دليلي. بما أنني لم أكن مرتاحاً بعدُ في دور الكفيف الذي ألعبُه، تمنيت أن نستمر في السير معاً لعدة دقائق أخرى. ولكسب الوقت، سألته:

- «ما أسمك؟

- اسمي جان يا سيدي.

- هل تسكن في هذا الحي؟

- لا يا سيدي، أنا أسكن في الدائرة الرابعة عشرة».

نحن مع ذلك في الطرف الآخر من باريس. بالرغم من وجود العديد من الأسباب التي يمكن أن تفسِّر وجود هذا الطفل هنا، فقد أدهشني أنه يتسكع هكذا في الشارع بعيداً عن بيته.

كنت على وشك أن أطرح عليه سؤالاً بهذا الصدد، لكني خشيت فجأة أن يبدو له تطفلي هذا غريباً، فيتنبّه للأمر ليصل إلى حدّ الهرب...

أكد الغلام بصوته الذي يتحول من الطبقة الحادة إلى الطبقة القوية، حتى في منتصف الكلمة الواحدة، أن هذا هو «شارع فيرسانجيتوريكس».

وقد فاجأني اسم القائد الغاليّ(١): أعتقد جازماً أن هناك شارعاً باسم فيرسانجيتوريكس يطلّ على هذا الشارع العريض، ولا أظن أن هناك شارعاً آخر بهذا الاسم في مكان آخر من باريس على كل حال.

فمن المستحيل استخدام الاسم ذاته لشارعين مختلفين في المدينة ذاتها، إلاّ إذا كان هناك شخصان يدعيان فيرسانجيتوريكس أيضاً في تاريخ فرنسا. وقد أعلمت مرافقي بشكوكي هذه.

أجاب دون تردد - «لا، لا يوجد إلاّ فيرسانجيتوريكس واحد وشارع واحد في باريس، وهو موجود في الدائرة الرابعة عشرة منها».

لابد أن الأمر اختلط عليّ إذن بشارع آخر؟... من الطبيعي أن نعتقد بأمور مثل هذه خاطئة تماماً: يكفي أن يتداخل جزء من الذكريات أساساً بمجموعة متجانسة تبقى منفتحة، أو أن نجمع

---

(١) نسبة إلى بلاد الغال أي فرنسا. (المترجمة)

أحياناً دون وعي، قسمين مبعثرين منها، أو نقلب ترتيب العناصر أيضاً من خلال منظومة سببية، حتى تتشكّل في رأسنا أوهام تظهر كأنها واقعية...

لكنني أرجأت حل المسألة الطبوغرافية التي أعاني منها، خوفاً من إنهاك الصبي بأسئلتي. ترك يدي الآن، فشككت بأنه لن يرشدني دليلاً لي فترة أطول. فقد يكون أهله بانتظاره على الغداء.

بما أنه لم يعد يقول شيئاً منذ فترة طويلة (طويلة لدرجة أنني انتبهت لمدتها)، فقد خشيت للحظة أن يكون قد ذهب لأكمل من الآن فصاعداً طريقي وحيداً، دون دعمه الذي أرسلتْه لي العناية الإلهية. يبدو عليّ الآن الاضطراب بالتأكيد، لأنني سمعت صوته الهادئ رغم نبرته الغريبة.

قال: «يبدو أنه ما من عادتك السير وحدك. هل تريد أن نبقى معاً قليلاً أيضاً؟ أين ستذهب؟».

أربكني السؤال. لكن يجب عليّ أن أتجنب لفت نظر دليلي المرتجل إلى ذلك.

ولكي لا يعرف أنني أنا نفسي أجهل المكان الذي سأذهب إليه، أجبته بثبات ودون تفكير:

«إلى محطة الشمال.

- إذن لم يكن علينا عبور الطريق، إنها على الطرف الآخر من الشارع».

له الحق في ذلك طبعاً. وأعطيته بسرعة التفسير الوحيد الذي راود تفكيري:

«كنت أظن بأن هذا الرصيف أقلّ ازدحاماً.

قال الصبي: - هو كذلك في الواقع؛ لكن، على كل حال، عليك أن تنعطف إلى اليمين حالاً. هل ستستقلّ القطار؟

- لا، سأنتظر صديقاً.

- من أين سيأتي؟

- من أمستردام.

- في أي ساعة؟».

ووقعت هنا من جديد في الحَرَج. ليتَ هناك حقاً قطاراً بعد الظهر!

الحمد لله، من المحتمل أن الصبي لا يعرف أوقات وصول القطارات.

قلت: «لا أذكر الساعة بالضبط. لكني بالتأكيد أتيت قبل الموعد بزمن طويل.

- قال الصبي: يصل قطار أمستردام السريع إلى المحطة في الساعة الثانية عشرة وأربع وثلاثين دقيقة. باستطاعتنا أن نكون في الموعد المحدد إذا أخذنا الطريق المختصرة. هيا لنسرع».

الفصل السابع

قال الصبي: - «سندخل هذا الزقاق وسنصل بشكل أسرع. لكن عليك أن تنتبه لموطئ قدميك: فالبلاطات متفاوتة الأحجام. وعلى العكس من الشارع العريض، لن نجد هنا سيارات ولا مارّة.

قلت: - حسناً سأنتبه.

- سأقودك قدر استطاعتي بين الحُفَر والنُّفَر. حين تعترضنا صعوبة مفاجئة وخاصة، سأشد على يدك بقوة أكبر... ها هو الزقاق: يجب أن ننعطف إلى اليمين.».

من الأفضل بالطبع فتح عينيّ، فهكذا سأكون أكثر حذراً وأكثر راحة على كل حال. لكنني قررت السير كفيفاً أطول فترة ممكنة. وهذا ما نسميه بالرهان الغبي.

قد أتصرف على كل حال مثل التائه أو الطفل، وهذا ما لم أعتد عليه قط...

في الوقت نفسه، تتلاءم هذه الظلمة التي ورّطتُ نفسي فيها والتي أستمتع بها دون شك بشكل ممتاز مع شكي العقلي الذي أتخبط فيه منذ استيقاظي. فالعمى عندي طوعي، وقد يصبح نوعاً من الاستعارة أو من الصور الموضوعية أو المكررة...

شدني الصبي بحزم من ذراعي اليسرى. وسار بخطى متلاحقة، خفيفة وواثقة، تعبت كثيراً كي ألحق بإيقاعها. كان يجب عليّ أن أنطلق وأن أخاطر أكثر، لكن لم أجرؤ: فكنت أتلمس الأرض أمامي بطرف عصاي، كأنني كنت أخاف من أن تصادفني هوّة فجأة، وهذا مستبعد جداً مع ذلك...

قال الصبي: «إذا لم تتقدم بسرعة أكبر فلن تصل في الوقت المحدد للقطار، ولن تلحق بصديقك، ومن ثم علينا البحث عنه في كافة أرجاء المحطة».

لم تكن تهمني قط الساعة التي سأصل فيها وذلك لسبب معروف لديّ؛ مع ذلك تبعت دليلي بثقة وإصرار. راودني انطباع غريب أنه يقودني إلى أمر هام لا أعرف عنه شيئاً، ومن الممكن ألاّ يكون له أي علاقة بمحطة الشمال وبقطار أمستردام.

دون شك، وبدافع من هذه الفكرة الغامضة، خاطرت بنفسي بجسارة متزايدة على هذه الأرض المليئة بالمفاجآت التي أخذت قدماي تعتاد عليها شيئاً فشيئاً.

وما لبثت أن شعرت بارتياح شديد. وخلت نفسي أسبح في عوالم جديدة...

لم أكن أعتقد بأن ساقيّ قد تعملان بسهولة كبيرة لدرجة ستبدوان معها مستقلتين، ومن دون أي رقابة تقريباً. كانتا ترغبان أيضاً بسرعة أكبر مجرورتين بقوة لايد للغلام فيها. كنت أستطيع الركض الآن فيما لو طلب مني ذلك...

لكن ها هو يتعثّر فجأة. ولم يكن لديّ الوقت حتى لأمسك به، فانزلقت يده مني وسمعته يصطدم بعنف أمامي تماماً. للحظة، ومأخوذاً باندفاعي، كنت سأقع فوقه أيضاً لنتدحرج معاً الواحد فوق الآخر كشخصيات صموئيل بيكيت. انفجرت ضاحكاً لهذه الصورة، وأنا أقف منتصباً من جديد. أما دليلي، فهو لم يضحك من مغامرته التعيسة، ولم ينبس ببنت شفة. لم أعد أسمعه يتحرك. هل هو جريح يا ترى بسبب الصدفة السيئة؟

هل سبّب له سقوطه رضّاً في الجمجمة لدى اصطدام رأسه ببلاطة نافرة؟

ناديته باسمه وسألته إنْ كان متوجّعاً، لكنه لم يجبني. ساد صمت مفاجئ وامتد، وهذا ما جعلني أقلق بشكل جدي.

تلمست الحجر بمقدمة عصاي الحديدية بحذر شديد...

كان جسد الصبي راقداً على الأرض، معترضاً الطريق. بدا دون حراك. فركعت وانحنيت فوقه. تركت عصاي كي أتلمس ثيابه بيدَيّْ. لم أجد أي ردة فعل، لكني أحسست تحت أصابعي بسائل لزج لم أستطع تحديد ماهيته.

كان خوفي حقيقياً هذه المرة. فتحت عينيّ. نزعت نظاراتي السوداء... وبقيت مبهوراً، أولاً، بالضوء الساطع الذي لم أكن قد تعوّدت عليه. ثم استطعت رؤية الأشياء بوضوح متحددة في

مكانها، وابتدأت الصورة بالتثبت أمامي، كما يتم الأمر في صورة فوتوغرافية فورية تظهر فيها الصورة شيئاً فشيئاً على ورقة شديدة البياض ولامعة... لكن، كانت هذه الصورة كما لو أنها ديكور حلم متكرر ومقلِق وخارج عن الخفايا التي لا أستطيع التخلص منها...

في الواقع، ذكّرتني الطريق الطويلة المقفرة التي تمتد أمامي بأمر ما، لا أستطيع مع ذلك تحديد أساسه: لديّ فقط الانطباع أنني مررت مؤخراً من هذا المكان قبل الآن، لمرة واحدة على الأقلّ أو لمرات عديدة...

إنه زقاق صغير مستقيم ضيق بما فيه الكفاية، خالٍ، منعزل، لا نستطيع تحديد آخره. كأن الناس هجروه وقاطعوه، ونسيه الزمن. تصطف على الجانبين أبنية منخفضة غير ثابتة، ومهدّمة نوعاً ما: إنها أكواخ ذات فتحات كبيرة، ورشات مهدمة، وجدران صمّاء وأرضيات خربة...

على البلاطات الغليظة ذات الطراز القديم - التي لم تعد تستخدم منذ مئة سنة - هناك صبي له من العمر إثنتا عشرة سنة، يرتدي قميصاً رمادياً، منفوخاً ومزموماً على خصره، كما كان يلبس الصبية الصغار في القرن الماضي، ممدد تماماً على بطنه فاقد الوعي كما يبدو...

حدث كل هذا إذن في الماضي مرة على الأقل. هذا الوضع الاستثنائي مع ذلك، الذي أواجهه هنا، لم يكن إلاّ تكراراً لمغامرة ماضية متشابهة تماماً، قد أكون عشتها أنا نفسي بكل تفاصيلها، أو مثّلتُ الدور ذاته فيها... لكن متى؟ وأين؟

امَّحَت الذكرى بالتدريج... وكلما حاولت الاقتراب منها، هربتْ مني...

ما تزال هناك بارقة أخيرة... ثم لا شيء على الإطلاق. لم يكن هذا إلا وهماً قصيراً. إنني أعرف تماماً هذه الانطباعات الحية والهاربة التي تتردد عليّ كما على العديد من الناس، والتي نطلق عليها هذا الاسم أحياناً: ذاكرة المستقبل.

قد تكون بالأحرى ذاكرة آنية في الواقع، فنعتقد بأن ما جرى معنا قد حدث معنا سابقاً، كما لو كان الحاضر مزدوجاً وانقسم في المنتصف تماماً إلى جزئين توأمين: واقع حالي ثم شبح الواقع... لكن سرعان ما يهتز هذا الشبح... ونود لو نمسكه.. فيمر، ثم يمر مرة أخرى خلف أعيننا، كفراشة شفافة أو كنارٍ لعوب ترقص ونحن لعبتها... وبعد عشر ثوان، يتلاشى كل شيء نهائياً.

أما بالنسبة لمصير الجريح، فهناك شيء واحد طمأنني على كل حال: السائل اللزج الذي غمست أصابعي فيه، وأنا أتلمس الأرض بجانب القميص الرمادي الحريري، ليس دماً، بالرغم من

أن لونه وأيضاً كثافته يجعلانا نعتقده كذلك. ليس هذا السائل سوى بقعة عادية من الوحل الضارب إلى الحمرة، الملوّن هكذا بفعل غبار الصدأ والذي وجد هنا في هذه الحفرة بين البلاط دون شك نتيجة هطول الأمطار مؤخراً. ولحسن حظ ثياب هذا الفتى المتواضعة والنظيفة، سقط الولد على حافة هذه البقعة تماماً. لقد فَقَد توازنه هو نفسه كي يجنبني ربما هذا العائق، الذي كنت أسرع نحوه. آمل ألاّ تكون نتائج سقطته أخطر من اللازم بكثير.

لكن يجب أن أهتم بذلك سريعاً. فحتى لو لم يُكْسَر أي عضو من جسمه، كونه قد فَقَدَ وعيه جعلني أخشى حدوث بعض الرضوض الخطيرة. مع ذلك، وبتفحص هذا الجسد الصغير بعناية الأم الحنون، لم أجد أي جرح في الجبين أو في الفك.

لم يصب أي جزء من الوجه. العينان مغمضتان، وكأن الصبي نائم.

كان يبدو أن تنفّسه ونبضه طبيعيان، بالرغم من أنهما ضعيفان. على كل حال، يجب أن أتصرف: لا أحد سيأتي لإغاثتي في هذا المكان المنعزل. لو كانت المنازل المحيطة بنا مسكونة، لكنت ذهبت لطلب العون منها، ولكنت نقلت الطفل إليها، والنساء الخيّرات أعطينه سريراً، ولكنا جميعاً استطعنا طلب شرطة النجدة، أو طبيب الحي الذي سيأتي حتماً إلى مكان الحادث. لكن، هل يوجد مستأجرون في هذه الأكواخ المفتوحة

على مصراعيها؟ أشك في ذلك. فهنا لا يمكن أن يعيش إلاّ المشردون، الذين سيسخرون مني حين أطلب منهم سريراً أو هاتفاً؛ وقد يستقبلوني ربما بشكل أسوأ أيضاً فيما لو أزعجتهم في انهماكهم ببعض اهتماماتهم المشبوهة.

في هذه اللحظة فقط، لمحت إلى يميني تماماً بناء صغيراً من طابقين، حاله أفضل بكثير من جواره، وقد احتفظ بنوافذه بشكل خاص ضمن إطاراتها وهي حافظت أيضاً على زجاجها كاملاً. كان الباب موارباً... إذن قد أخاطر هنا وأقوم بأولى زياراتي. حالما أضع الجريح في ملجأ، سأصبح دون شك أكثر اطمئناناً.

لكن بدا لي بشكل غير قابل للتفسير، أنني أعرف التتمة مسبقاً:

فعندما سأدفع الباب الموارب بقدمي، سأدخل إلى هذا المنزل المجهول، مع الطفل فاقد الوعي الذي سأحمله بين ذراعي بحذر. في الداخل، كل شيء سيكون مظلماً ومقفراً. وسألاحظ في هذه الأثناء إضاءة مبهمة ضاربة إلى الزرقة، آتية من الطابق الأول. سأصعد على مهل سلّماً خشبياً ضيقاً وحاد الانحناء، تصطك درجاته في الصمت...

أعرف ذلك، أذكره... أذكر هذا المنزل بدقة مهلوسة، وأذكر كل هذه الأحداث التي لابد أنها وقعت سابقاً، ثم تجاوزتُها، بعد أن حدثتْ، إلى أخرى ساهمتُ فيها بشكل فعّال... لكن متى كان هذا؟

في أعلى السلّم، كان هناك باب موارب، تقف عنده فتاة طويلة ونحيلة، ذات شعر أشقر زاهٍ، كما لو أنها كانت بانتظار مجيء أحد. كانت ترتدي ثوباً أبيض، ذا قماش خفيف هفهاف وشفاف، وحين تتطاير طياته عند هبوب نسمة محتملة، تحمل معها انعكاسات هذا الضوء الأزرق الذي كان يهبط لا ندري من أين.

كانت شفتاها الشاحبتان تفترّ عن ابتسامة غير محددة، عذبة جداً، نَضِرة وبعيدة؛ وكانت عيناها الخضراوان الكبيرتان والمتوسعتان بفعل العتم تلمعان ببريق غريب، «كما لو أنها فتاة آتية من عالم آخر»؛ هذا ما فكر فيه سيمون لوكور حالما لمحها.

بقي في مكانه جامداً على عتبة الغرفة، حاملاً بين ذراعيه الصبي الصغير المغمى عليه (وكان يقول في نفسه «كما لو أنه يحمل ضمّة ورد لإهدائها الآن»).

بقي مسحوراً هو نفسه، إذ أخذ يتأمل هذا الظهور الرائع ويخشى في كل لحظة أن تتلاشى الفتاة هباءً منثوراً، خاصة عند هبوب نسمة هواء قوية (لن يتعرض لهذه النسمة مع ذلك أي شيء آخر في الغرفة)، تلك النسمة ستطيّر أجزاء فستانها من حولها «كما يتطاير اللهب بلون الرماد».

بعد فترة من الزمن طويلة دون شك (لكن من المستحيل قياسها بشكل أكيد)، لم يستطع سيمون خلالها التوصل إلى

تركيب أي جملة في رأسه بإمكانها ملاءمة هذا الوضع الخارق للطبيعة، وكمحاولة أخيرة يائسة انتهى إلى لفظ هذه الكلمات البسيطة السخيفة:

«لقد جُرِحَ الطفل.

- نعم أعرف» قالت الفتاة الشابة ذلك ولكن بعد لأيٍ، لدرجة أن كلمات سيمون بدت كأنها اجتازت فضاءات واسعة إلى أن وصلت إلى مسامعها. ثم، بعد صمت جديد، أضافت: «صباح الخير. اسمي دْجين».

كان صوتها عذباً وبعيداً، جميلاً لكنه لا يُدْرَك كعينيها.

سألها سيمون: «هل أنت من الجان؟

- أنا طيف، أنا جنيّة، أنا فتاة... كما تشاء.

قال سيمون: - اسمي سيمون لوكور.

فقالت الفتاة المجهولة: «نعم أعرف»

كان في صوتها نبرة غريبة خفيفة، ربما تكون إنكليزية، إلاّ إذا كانت نبرتها كنبرة حوريات البحر الغنائية أو نبرة الجنيات. لقد وَسِعت ابتسامتها بشكل يكاد لا يُلْحَظ، وهي تتلفظ كلماتها الأخيرة: كأنها تتكلم أساساً من بعيد في الزمان، وموجودة في نوع من العالم المستقبلي، الذي تمّ وانتهى كل شيء فيه.

فتحت الباب على مصراعيه حتى يتمكّن سيمون من الدخول دون انزعاج.

ثم وبحركة أنيقة من ذراعها العارية (التي انطلقت من كمّها العريض والمفتوح بشكل واسع بفعل حركتها) أشارت إلى سرير نحاسي على الطراز القديم، يستند إلى جدار في نهاية الغرفة تحت صليب من خشب الأبنوس، ومحاط بشمعدانين من البرونز المذهّب اللامع وعليه عدة شمعات.

قامت دْجين بإشعالها الواحدة تلو الأخرى ببطء شديد.

قال سيمون: - «كأنه سرير ميت.

فأجابت الفتاة وهي تهمس بصوت يكاد لا يسمع:

- أليست كل الأسرّة مخصصة للموت في يوم أو آخر؟». وللتأكيد، أخذ صوتها ثباتاً أكثر فيما بعد وأصبح حنوناً فجأة: «حالما أمدد جان على شراشف بيضاء، سينام دون أن يحلم.

- أنتِ على علم أيضاً أن اسمه جان؟

- وماذا سيكون اسمه غير ذلك؟ بأي اسم غريب تريده أن يسمّى؟ كل الصبية الصغار اسمهم جان. وكل الفتيات الصغيرات اسمهن ماري. لو كنتَ من هنا لعرفتَ ذلك».

تساءل سيمون ماذا تعني بكلمة «هنا». هل تعني هذا المنزل الغريب؟ أم هذا الزقاق المهجور بمجمله؟ أم ماذا يمكن أن تعني؟ ووضع سيمون على السرير الجنائزي وبهدوء الطفل فاقد الوعي، وجعلت دْجين يديه موضوعتين وسط صدره، كما نفعل لهؤلاء الذين صعدت روحهم إلى السماء.

لم يبدِ الصبي وهو مستسلم أي مقاومة تذكر، ولا أي ردة فعل مهما كانت بسيطة. كانت عيناه مفتوحتين تماماً، لكنّ حدقتيهما ثابتتان. وكانت شعلة الشمع تبرق فيهما بانعكاسات راقصة، لإعطائهما حياة محمومة، خارقة للطبيعة ومقلقة.

تقف دْجين الآن جامدة من جديد قرب السرير الذي تتأمله بسكينة. وهي في وقفتها هذه بثوبها الهفهاف الطيفي تقريباً، يمكن اعتبارها الروح الأمين الذي يسهر على راحة قلب حزين.

كان على سيمون أن يبذل مجهوداً فوق طاقته في هذا الصمت الضاغط الذي طغى على الغرفة، كي يسأل الفتاة الشابة أسئلة جديدة:

«هل تستطيعين أن تقولي لي ممَ يعاني؟

أجابت: - إنها اضطرابات حادة في الذاكرة، تسبّب له فقدان وعي جزئياً، وهذا ما قد يقضي عليه في النهاية. يجب أن يرتاح، وإلاّ فإن دماغه المجهد سيتعب بسرعة وستموت خلاياه العصبية من الإنهاك، قبل أن يصل إلى سن الرشد.

- ما نوع هذه الاضطرابات بالتحديد؟

- إنه يتذكّر بدقة متناهية ما لم يحدث بعد: ما سيحدث معه غداً، أو حتى ما سيفعله في العام القادم. ولست أنت هنا سوى شخصية من ذاكرته المريضة. فحين يستيقظ، ما تلبث أن تختفي أنتَ من هذه الغرفة التي لم تدخلها بعدُ في الواقع...

- سآتي إذن إلى هنا فيما بعد؟

- نعم، دون شك.

- متى؟

- لا أعرف التاريخ بالضبط. ستصل إلى هذا البيت للمرة الأولى، في منتصف الأسبوع القادم...

- وأنتِ يا دْجين، ماذا سيحلّ بك حين يستيقظ؟

- أنا أيضاً سأختفي من هنا عند استيقاظه. سنختفي كلانا في اللحظة نفسها.

- لكن، إلى أين سنذهب؟ هل سنبقى معاً؟

- آه لا. سيكون ذلك ضد قواعد التسلسل الزمني. حاول أن تفهم: أنت ستذهب إلى حيث يجب أن تكون في هذه اللحظة، في واقعك الحالي...

- ماذا تعنين «بالحالي» ؟

- إنها أناكَ المستقبلية هي الموجودة هنا، خطأً. فأناكَ «الحالية» هي كما أعتقد، على بُعْدِ عدة كيلومترات، تشارك في اجتماع بيئي ضد مفهوم الآلية الألكتروني، أو شيء من هذا القبيل.

- وأنت؟

- أنا للأسف قد مِتُّ منذ ثلاث سنوات، إذن لن أذهب إلى أي مكان. هو فقط دماغ جان المضطرب الذي جمعنا في هذا المنزل صدفة: أنا أنتمي إلى ماضيه، بينما أنت يا سيمون تنتمي إلى وجوده المستقبلي. هل فهمتَ الآن؟».

لكن سيمون لوكور لم يكن يستطيع إدراك ما يعنيه كل هذا مادياً، إلاّ بشكل مجرّد تماماً. ومن أجل أن يبرهن على أنه لم يكن سوى حلم شخص آخر - إيجاباً أو نفياً -، راودته فكرة قرص أذنه بشدة. وشعر بألم طبيعي وواقعي جداً. لكن ما الذي يثبت ذلك؟

كان عليه أن يناضل ضد الدوار الذي أصاب عقله بسبب استسلامه لهذا التداخل في الزمان والمكان. ربما كانت هذه الفتاة الشفافة والحالمة مجنونة تماماً... رفع عينيه نحوها. كانت دْجين تنظر إليه وتبتسم. قالت: «تقرص أذنك كي تعرف فيما لو كنت تحلم أم لا. لكنك لا تحلم: أنت «محلوم بك»، وهذا مغاير لذاك. ومع ذلك، أنا نفسي الميتة، أستطيع أيضاً أن أشعر بألم في

جسدي أو برغبة: إنها معاناتي وأفراحي الماضية التي يتذكرها هذا الطفل لأنه قادر على استقبالها، ويستطيع أن يعيدها إلى الحياة مجدداً، بعد أن غيّبها الزمن مباشرة».

تنازعت سيمون أحاسيس متناقضة. فمن جهة سحرته هذه الفتاة الغريبة ودون أن يعترف بذلك كان يخشى من أن يراها تختفي مرة أخرى؛ حتى لو كانت آتية من مملكة الأشباح، فقد رغب بالبقاء إلى جانبها. لكن في الوقت نفسه، كانت كل هذه الأمور العبثية تغضبه: فلديه انطباع أنهم يروون له حكايات غرائبية كي يسخروا منه.

حاول التفكير بهدوء. لا يمكن لهذا المشهد (الذي يعيشه الآن) أن ينتمي لحياته المستقبلية - أو لحياة الصبي المستقبلية - إلاّ إذا كان على هذه الشخصيات الحاضرة في الغرفة أن تجتمع حقاً فيما بعد، في الأسبوع القادم مثلاً. غير أنّ هذا مستحيل ضمن الشروط الطبيعية، إنْ كانت الفتاة قد ماتت قبل سنتين. للسبب ذاته في المفارقة الزمنية، فإن المشهد الحالي لا يمكن له أن يقع في الحياة الماضية لدْجين، بما أنه لم يلتقِ بها قط خلال حياتها...

ساور هذه القناعة، الراسخة جداً، الشك المفاجئ... بلمح البصر، عبرت الذكرى فكر سيمون وهي تتلخص بلقاء ماضٍ بفتاة شقراء ذات عينين خضراوين صافيتين وذات لهجة أميركية خفيفة...

ما لبث هذا الانطباع أن امّحى كما جاء فجأة. إلاّ أن الشاب بقي مضطرباً جراء ذلك.

هل كان قد خلط زمن الفكرة ببعض صور الممثلة جين فرانك التي أثّرت فيه جداً في أحد أفلامها؟ لم يستطع هذا التفسير إقناعه. وعاوده الخوف من جديد أقوى مما كان عليه: الخوف من ألاّ يخرج الصبي من إغمائه، ومن أن تختفي دْجين وإلى الأبد من أمام عينيه.

في هذه اللحظة، انتبه سيمون إلى جزئية هامة في الديكور، والتي لم يلحظها حتى الآن، ويا لغرابة ذلك! كانت ستائر الغرفة مسدلة، وتغطي بشكل كامل المساحات الزجاجية المطلّة على الشارع، وهي مصنوعة من قماش أحمر داكن وسميك، قديم جداً دون شك (مهترئ بفعل الزمن، على طول الطيّات وحتى اللُّحْمَة). لماذا هي مغلقة هكذا في وضح النهار؟

لكن سيمون فكّر فيما بعد بفكرة «وضح النهار» تلك. كم هي الساعة إذن؟ وبفعل قلق مفاجئ جعله يضطرب، ركض إلى النوافذ التي لم يكن يمرّ من خلالها أي شعاع ضوئي، لا من خلال قماش الستائر ولا من الجوانب. ورفع بسرعة ذيل الستارة.

في الخارج، كان الليل حالك السواد. منذ متى؟ كان الزقاق غارقاً في عتمة كاملة، تحت سماء دون نجوم ودون قمر. لم نعد نلحظ أي بصيص نور - كهربائي أو غير ذلك - من فتحات

المنازل غير المرئية أساساً. كان فانوس وحيد من طراز قديم، بعيد جداً إلى اليمين تماماً، يؤمِّن إضاءة ضعيفة ضاربة للزرقة من خلال شعاع على بعد بضعة أمتار تقريباً.

ترك سيمون الستارة تُسْدَل. هل يمكن للّيل أن يكون قد هبط بهذه السرعة؟ أم أن الزمن «هنا» يتهاوى حسب قوانين مختلفة؟ أراد سيمون تفحّص ساعة يده. حتى إنه لم يدهش حين لاحظ أنها قد توقفت. كان عقربا الساعة يشيران إلى الثانية عشرة تماماً. فيمكن أن يكون الوقت ظهراً، أو منتصف الليل على حد سواء.

وعلى الجدار بين النافذتين، عُلِّقت صورة فوتوغرافية تحت الزجاج، محاطة بإطار خشبي أسود، يخترقه من الخلف غصن من شجيرة البقس المقدسة. ونظر إليه سيمون عن قرب، إلاّ أن النور الآتي من الشمعدان لم يكن كافياً لتمييز ملامح الشخصية الموجودة في الصورة، ويبدو أنه رجل بلباس عسكري. تملكت سيمون رغبة مفاجئة في رؤية وجهه بشكل أفضل، حيث أخذت هذه الصورة فجأة أهمية لا تفسير لها. فاستدار بحيوية نحو السرير، وأمسك بأحد المشاعل ثم عاد إلى الصورة وأضاءها بأفضل ما استطاع من إنارة من الشمعات المضطربة...

كان على وشك المراهنة: إنها صورته هو. لم يفاجأ بذلك. إذ تعرّف إلى الوجه تماماً بالرغم من أنه أكبر بسنتين أو ثلاث سنوات أو أكثر قليلاً، وهذا ما كان يعطيه لمحة من الجدية والنضج.

بقي سيمون كأنه متحجّر؛ وبالرغم من أن ذراعه ما زالت ممدودة بالشمعدان البرونزي الضخم، إلاّ أنه لم يستطع أن يزيح عينيه عن شبيهه الذي كان يبتسم له بشكل خفي، بلمحة أخوية وساخرة في الوقت نفسه.

على أن هذه الطبعة المجهولة كانت ترتدي اللباس البحري الحربي برتبة قائد أول. لكن اللباس لم يكن تماماً كالمستخدم في الجيش الفرنسي، ليس في العصر الحالي على كل حال. لم يكن سيمون على كل حال في يوم من الأيام جندياً أو بحاراً. كانت الصورة بلون «السبيدج»(١) الباهت قليلاً، والورقة تبدو مصفرّة بفعل الزمن، وملطخة ببعض البقع الرمادية أو البنية. في الهامش السفلي يملأ سطران مخطوطان القسم الفارغ من الورقة. عرف سيمون فوراً خطه، ولكنه كان مائلاً إلى الجهة الأخرى كأنه خط إنسان أعسر. وقرأ بصوت منخفض: «لماري وجان، والدهما العزيز».

استدار سيمون لوكور. ودون أن يسمع خطوات دْجين، اقتربت منه، وكانت تتأمله بحركة في فمها فيها شيء من العبث والحنان، قالت له:

---

(١) السبيدج: مادة ملوّنة باللون البني الداكن، تستعمل في تلوين الرسوم. (المترجمة)

«أترى، إنها صورتك بعد عدة سنوات.

- تنتمي هذه الصورة، إذن، هي أيضاً، إلى ذاكرة جان المريضة وإلى مستقبلي؟

- بالطبع، ككل شيء هنا.

- إلاّ أنتِ؟

- نعم، تماماً. لأن جان يخلط الأزمان. وهذا ما يشوّش الأشياء، بعضها بعضاً، ويجعلها صعبة الفهم قليلاً.

- كنت تقولين للتوّ إنني سآتي إلى هنا خلال عدة أيام. لماذا؟ ماذا سأفعل هنا إذن؟

- ستحمل بين ذراعيك صبياً صغيراً جريحاً بالطبع، وهو سيكون ابنك في كل الأحوال.

- جان هو ابني؟

- «سيكون» ابنك، كما يثبت ذلك، هذا الإهداء الموجود على الصورة؛ وسيكون لديك ابنة صغيرة، ستسميها ماري.

- أنت ترين جيداً أن ذلك مستحيل! لا يمكن أن يصبح لديّ في الأسبوع القادم طفل في الثامنة من عمره، وهو لم يولد اليوم بعدُ، وأنت قد عرفتِهِ مع ذلك قبل سنتين!

- أنت تفكر تماماً كفرنسي: تفكيرك وضعي وديكارتيّ... على كل حال قلت بأنك قد تأتي إلى هنا بعد بضعة أيام «للمرة الأولى». لكنك ستعود غالباً فيما بعد. ومن المحتمل أنك ستسكن هذا المنزل مع زوجتك وطفليك. وإلاّ لماذا تزيّن صورتك هذا الجدار؟

- ألستِ فرنسية؟

- لم أكن فرنسية. كنت أميركية.

- ماذا كنت تعملين في حياتك؟

- ممثّلة في السينما.

- وكيف متِّ؟

- حادث آلة أحدثه حاسوب مجنون. ولهذا فإنني أناضل الآن ضد المكننة والمعلوماتية.

- كيف «الآن»؟ كنت أعتقد بأنك ميتة!

- وماذا بعد؟ أنت أيضاً ميت! ألم تلحظ الصورة المؤطّرة بالخشب الأسود وغصن شجيرة البقس المقدسة الذي يسهر على راحة نفسك؟

- وممَ متُ إذن؟ وممَ يمكن أن أموت؟ أو بالأحرى ممَ سأموت؟ هذا ما صرخ به سيمون وقد ازداد حنقه شيئاً فشيئاً.

- «ستقضي غرقاً في البحر»، أجابت دْجين بهدوء.

هذه المرة لم يعد يحتمل. بذل سيمون آخر جهد لديه، يائساً، كي يخرج من هذا الذي لا يمكنه إلا أن يكون كابوساً. وفكّر بأن عليه أولاً تهدئة أعصابه:

كان عليه أن يصرخ أو أن يضرب رأسه بالجدار أو أن يكسر شيئاً...

وبغضب شديد، ترك الشمعدان يسقط مشتعلاً على الأرض، وخطا بخطوة واثقة نحو هذه الفتاة الجميلة جداً التي كانت تسخر منه. ثم ضمّها بين ذراعيه. فلم تقاومه، وعانقته كأخطبوط أشقر، بحسية لم يكن سيمون يتوقعها.

رغم أنها شبح، فقد كان لديها جسد دافئ وعذب جداً. كانت تقوده إلى السرير، الذي هرب منه الصبي بعد أن استيقظ دون شك بفعل الصخب. وعلى الأرضية، كانت الشمعات المبعثرة مستمرة في الاحتراق لدرجة المجازفة بإحراق الستائر... إنها آخر رؤية واضحة لسيمون لوكور في ما يتعلق بالغرفة قبل الانغماس الكامل في اللذة.

الفصل الثامن

حين وصلتُ إلى فرنسا في العام الماضي، تعرّفت صدفة إلى شاب من عمري اسمه سيمون لوكور؛ كان يسمي نفسه بوريس، ولم أعرف سبباً لذلك على الإطلاق. أعجبني فوراً. كان جميلاً، وأكثر طولاً من الفرنسيين الآخرين، وكان لديه بخاصة خيال غريب الأطوار يساعده على تغيير حياته اليومية في كل لحظة وتحويل أحداثها الأكثر بساطة إلى مغامرات روائية غريبة، كما في قصص الخيال العلمي. لكني ما لبثت أن فكرت بأن عليّ أن أتحلّى بصبر كبير أحياناً، كي أتقبّل عن طيب خاطر اختراعاته الغرائبية، وعليّ بالأحرى وصفها بالجنون. فقلت في نفسي منذ ذلك اليوم «يجب أن أحبه حباً جمّاً، وإلاّ فإننا لن نتحمّل بعضنا طويلاً».

تقابلنا بطريقة غريبة وتافهة معاً، بفضل إعلان صغير قرأناه في الجريدة اليومية. كنا كلانا نبحث عن عمل: عمل قصير متقطع قد يسمح لنا دون كبير عناء بأن نحصل على بعض الكماليات إن لم نستطع الحصول على كل ما يلزمنا. كان يدّعي أنه طالب هو الآخر. إذن، هو إعلان مكتوب بأسلوب بَرقي

وباختصارات واضحة نوعاً ما، يطلب شاباً أو شابة للاهتمام بطفلين، صبي وفتاة، ومن المحتمل أن يتعلّق الأمر بالاهتمام بهما مساءً، وبإعادتهما من المدرسة، واصطحابهما إلى حديقة الحيوان، أو بعمل أشياء أخرى من هذا القبيل. ذهبنا كلانا إلى الموعد المحدد. ولكن لم يأتِ أحد غيرنا.

لابدّ أن المعلِن، في هذه الأثناء، قد تخلّى عن مشروعه، أو أنه استطاع عن طريق أخرى الحصول على ما كان بحاجة إليه. على أي حال، وُجِدْنا أنا وسيمون وجهاً لوجه، واعتقد كلٌّ واحد منا بادئ ذي بدء أن الآخر هو مستخدِمه المفترض. حين اكتشفنا أن الأمر لم يكن قط كذلك، وأن المعلِن قد تملّص من التزامه (أي أنه أخلف بموعده، كما يقال في فرنسا)؛ خابت آمالي كثيراً، من جهتي أنا، أما هو، ودون أن يرتبك لثانية واحدة، استمتع بالاستمرار في الخطأ طوعياً، وأخذ يحدثني كما لو أنني أصبحت من الآن فصاعداً رئيسته في العمل.

فسألته حينها: «ألا يزعجك أن تعمل بإمرة فتاة؟».

فقال لي إن ذلك يعجبه جداً، على العكس.

كان قد قال «يعجبه» ولم يقل «قد يعجبه»، هذا يعني أنه كان مستمراً في اللعبة.

حاولت إذن بدوري التظاهر أنني أنا نفسي هي ما كان يقوله فعلاً، أي رئيسته في العمل، لأن ذلك يبدو لي مضحكاً،

إذ كنت أجده طريفاً وجذاباً بشكل خاص. لدرجة أنني أضفت أن هذين الطفلين اللذين يمكن أن يهتم بهما من أجلي من الآن فصاعداً، لا يؤمَن جانبهما: فهما ينتميان إلى منظمة إرهابية تعمل على تفجير المفاعلات الذرية... إنها فكرة حمقاء خطرت لي فجأة ولا أدري سبباً لها.

ومن ثم ذهبنا إلى مشرب في الشارع القريب، حيث قَدّم لي فنجان قهوة بالقشدة وصحن «كروك مسيو». كنت أرغب بأكل البيتزا، لكنه ما لبث أن بدأ فوراً بقصّ حكايات خيالية جديدة حول هذا المشرب، الذي من المفترض أنه كان يُقدَم فيه، على ما يبدو لجواسيس الأعداء، أغذية مسمومة للتخلص منهم. وبما أن نادل المقهى كان قليل الثرثرة وعبوساً، مظهره بالأحرى مشؤوم وكئيب، فقد ادّعى سيمون بأن هذا النادل هو عميل سوفييتي وأن الطفلين أيضاً كانا يعملان لحسابه الخاص.

كنا كلانا سعيدين جداً، نتهامس كي لا يسمعنا النادل، كأننا متآمران أو متحابان؛ ونلهو بكل شيء. كان كل شيء يبدو لنا وكأنّه يحدث في جو خاص، مميّز وشبه خارق للطبيعة.

كان شراب القهوة بالقشدة رديئاً. إلاّ أن رفيقي قد شرح لي بشكل جدي جداً أنني إذا كنت أستمر في شرب القهوة السادة فقد أصبح كفيفة بسبب لون عينيّ الأخضر الصافي. وقد استغلّ هذا الموقف بالطبع كي يوجّه لي بعض المجاملات التقليدية حول "نظرتي الغامضة" وحتى حول «البريق غير الطبيعي» لحدقتَيّ!.

كان عليّ أن أذهب إلى محطة الشمال لأنتظر هناك صديقتي كارولين التي من المفترض أن تصل في قطار أمستردام. لم تكن المحطة بعيدة جداً عن المكان الذي كنا فيه. فاقترح سيمون أن نذهب سيراً على الأقدام، وهو بالطبع راغب في مرافقتي. كان يجب أن أكتب بالأحرى: «قرر سيمون أن نذهب سيراً على الأقدام»، وذلك لأن نزوته الملحاحة كانت تتناسب عكساً والتسلطيّة المستبدّة.

ابتدأنا السير بسرور. كان سيمون يتفنّن باختراع كل أنواع الحكايات، الخيالية، نوعاً ما، التي تتعلق بالأمكنة التي نجتازها وبالأشخاص الذين نصادفهم في الشارع. لكنه أخذ طريقاً غريبة معقدة وهو غير متأكد إلى ما تفضي إليه: فهي أزقة، كلما مشينا فيها أصبحت أكثر إقفاراً، ويبدو أنها طريق مختصرة.

انتهى بنا الأمر إلى الضياع تماماً. فخشيت أن أصل متأخرة، ولم يعد وجود سيمون يسليني بالطبع مثلما كان. ولعدم توفّر وسيلة أخرى، كنت سعيدة جداً بركوب سيارة أجرة جاءت تتصيّد الزبائن، وقد اعتبرت وجودها غير المتوقَّع في مثل هذا المكان الضائع كأنها مرسلة من العناية الإلهية.

قبل أن أترك دليلي الذي يرثى لحاله، والذي كان يرفض، لأسباب غرائبية، الركوب معي في هذه السيارة، أعطيته موعداً مع ذلك ليوم الغد، بحجة عبثية أساساً (عبثية طوعاً)، ألا وهي

زيارة هذا الحي المجدب الكئيب مرة أخرى، مع أنه دون أيّ جاذب سياحي، بدءاً من النقطة التي افترقنا عندها، أي في منتصف زقاق طويل مستقيم بين سياج قديم وجدران شبه متهاوية وجناح خَرِب نتخذه نقطةَ علاّم.

بما أنني كنت أخشى عدم إمكانية العثور على هذا المكان وحدي، قررنا أن نلتقي من أجل هذه الرحلة الاستكشافية، في المقهى - المشرب الذي كنا قد توقفنا فيه اليوم. قد تكون البيرة فيه أفضل من القهوة السادة.

إلاّ أن سائق «التاكسي» كان ملحاحاً: فقد ادّعى أن سيارته تعرقل المرور، وهذا ما دلّ على الحمق تماماً لأنه لم يكن هناك أي سيارة أخرى على الإطلاق. في هذه الأثناء، كان موعد وصول القطار يقترب، فودّعنا بعضنا بوداع مختصر أنا وسيمون. في اللحظة الأخيرة، صرخ مردداً رقم هاتف أستطيع من خلاله الاتصال به: سبعمائة وخمسة وستون - ثلاثة وأربعون - واحد وعشرون.

بعد أن اتخذت مقعدي في سيارة الأجرة التي كانت قديمة وبحالة أسوأ أيضاً من سيارات الأجرة في نيويورك، فكّرتُ بأن لها هذا اللون الأصفر الزاهي الذي اعتدنا عليه في بلدنا[1]، وهو لون جدّ استثنائي في فرنسا. أما سيمون فلم يفاجأ، مع ذلك، بالأمر.

---

(١) المقصود هنا مدينة نيويورك، لأن البطلة أميركية. (المترجمة)

من ثم، وبعد تفكير عميق في الأمر، تساءلتُ: كيف يمكن لهذه السيارة أن نجدها هنا في طريقنا بالضبط: فليس من عادة سيارات الأجرة تصيّد الناس في مثل تلك الأماكن المقفرة، وشبه الخالية من السكان. لا يمكن تفسير ذلك أبداً...

وتنامى اضطرابي أكثر حين لاحظت بأن السائق قد وضع مرآته العاكسة الداخلية في أعلى واقية الريح، بحيث يراقبني أنا نفسي، براحة تامة، وذلك عوضاً عن مراقبة الشارع من خلفنا. حين التقت نظراتنا في المرآة الصغيرة المستطيلة، لم يُشِح حتى ببصره عني. كانت على وجهه سمات قوية غير منتظمة وغير متوازنة. ووجدت أنه يوحي بالشؤم. وقد انزعجت من بؤبؤيه الداكنين والغائرَين عميقاً في محجرَيْ العينين، واللذين كانا يستمران في التحديق بي في المرآة (هل كان يعرف جيداً إذن هذا التيه من الأزقة، لدرجةٍ تمكّنه من أن يقود العربة هكذا وبسرعة دون أن ينظر إلى الشارع إلاّ قليلاً؟)؛ فسألته إن كانت محطة الشمال ما زالت بعيدة. فتحرك فمه بحركة عصبية مخيفة، ربما كانت تنمّ عن ابتسامة لم تكتمل وقال بصوت متمهل:

«لا تقلقي، ما نلبث أن نصل إليها».

إن هذه الجملة المهدِّئة التي لفظها بنبرة محزونة (وقد يعتبرها أحد الخوّافين جملة تهديدية)، زادت من اضطرابي. وفيما بعد، لمت نفسي من حذري الزائد، وقلت لها لابد وأن

عدوى خيال سيمون الهذياني قد مسّتني. كنت أعتقد بأنني قريبة جداً من المحطة في اللحظة التي افترقنا فيها أنا وسيمون. ومع ذلك، فقد سارت سيارة الأجرة طويلاً في أحياء لم أتعرف فيها إلى شيء، في الضواحي البعيدة بالأحرى.

ثم فجأة، وعند منعطف الطريق، وجدنا أنفسنا أمام الواجهة المعروفة لمحطة الشمال. وعلى حافة الرصيف، حيث تقف سيارات الأجرة لتُنْزِلَ ركابها بعد منعطف سريع، كان سيمون في انتظاري. فتح لي باب السيارة بظرافة، وقد دفع للسائق أجرته حتماً، لأنني بعد أن رأيته ينحني قليلاً نحو نافذة السائق المفتوحة، أقلع هذا الأخير بسيارته بسرعة كبيرة دون أن ينتظر أي شيء آخر. مع ذلك فإن تبادل الحديث (غير المسموع) هذا قد كان مختصراً جداً، ولم أذكر أنني رأيت أدنى حركة بين الرجلين يمكن أن تعتبر بمثابة تسديد للأجرة.

كنت أساساً مذهولةً من عودة ظهور سيمون غير المتوقّعة. كان يبتسم بلطف ومرح، كطفل عَمِل مقلباً حلواً. وسألته كيف وصل إلى هنا.

فأجابني «حسناً، قد أخذتُ طريقاً مختصرة».

- هل أتيت سيراً على الأقدام.

- طبعاً. وأنتظركِ منذ عشر دقائق.

- لكن هذا مستحيل!

- ربما هو مستحيل، لكنه صحيح. لقد أخذتْ منكِ هذه الطريق القصيرة جداً زمناً طويلاً. والآن فاتكِ القطار وكذلك صديقتكِ».

يا للأسف، هذا صحيح. كنت قد تأخرتُ عشر دقائق تقريباً، وستقابلني صعوبة كبيرة في العثور على كارولين ضمن الجموع. كان يجب عليّ انتظارها وهي تنزل من القطار في بداية رصيف المحطة تماماً.

أضاف سيمون أيضاً «إذا كنت تريدين رأيي، فأنا أرى أن هذا السائق قد نزّهك خصيصاً ليطيل الطريق عليك. بما أنكِ تأخرتِ في الوصول، اعتقدتُ للحظة بأنكِ لن تصلي أبداً: فسيارات الأجرة الصفراء هي التي تُستَخْدَمُ دائماً في عمليات الخطف. إنها تقاليدنا.

«يجب عليكِ من الآن فصاعداً الحذر أكثر: فكل يوم تختفي في باريس حوالى دزينة من الفتيات الجميلات بهذه الطريقة. ويقضين بقية حياتهن القصيرة في منازل اللذات الفخمة في بيروت وماكاو[1] وبيونس آيرس. حتى إنه اكْتُشِفَ في الشهر الماضي...».

(١) ميناء صيني على خليج كانتون، كان في ما مضى مستَعمَرة برتغالية. (المترجمة)

ثم فجأة، كما لو أنه كان يتذكّر قضية مستعجلة، قطع سيمون حديثه في منتصف إبداعاته المختَرَعة والكاذبة كي يصرّح مسرعاً:

«اعذريني، يجب أن أذهب. قد تأخرت جداً... إلى اللقاء غداً إذن كما اتفقنا».

لكي يذكِّرني بموعدنا في اليوم التالي، تحدّث بصوت منخفض وغامض كما لو أنه كان يخشى إنصات بعض الجواسيس المحتملين لحديثه. فأجبته «إلى الغد!» رأيته يذهب راكضاً. وما لبث أن اختفى بعد ذلك بين الجموع.

فعدت أدراجي إلى مدخل المحطة ولمحت كارولين وهي تخرج منها، متجهة نحوي بابتسامة عريضة جداً على وجهها. أدهشتْني إذ رأيتها ممسكة بيد طفلة صغيرة شقراء جميلة جداً لها من العمر ربما سبع أو ثماني سنوات.

وكارولين التي كانت يدها اليمنى مشغولة بحمل حقيبة السفر، تركت يد الفتاة الصغيرة كي تومي إليّ بتحية مرحة بذراعها اليسرى.

صرختْ دون الاهتمام بالمارّة الذين كانوا يستعجلون المشي في كل الاتجاهات بيني وبينها: «أهكذا تنتظرينني على رصيف المحطة! تقفين لتتكلمي مع الشباب دون أن تهتمي بساعة وصول قطاري!».

وركضتْ نحوي وقبّلتني بحماستها المعتادة. كانت الفتاة الصغيرة تنظر في اتجاه آخر، وعلى وجهها ملامح خفية لصبية عالية التربية لم يعرّفها أحد بي بعد. فقلت:

«نعم أعرف أنا متأخرة قليلاً. اعذريني. سأشرح لك الموقف...

- لا يوجد شيء لتشرحيه لي: رأيتكِ بأم عيني وأنتِ تقفين مع شاب جميل!

آه نسيت...

أقدِّم لكِ ماري. إنها ابنة أخي جوزيف وجانّ. لقد وضعاها في رعايتي، عندي في أمستردام، كي أعيدها بعد ذلك إليهما".

فحيتني الفتاة تحية واثقة وجدية بانحناءة معقدة واحتفالية، كما كانوا يعلِّمون الآنسات تأدية التحية قبل خمسين أو مئة سنة. قلت: «مرحباً يا ماري!»، وتابعتْ كارولين تفسيراتها بسهولة وسرعة.

«كانت تقضي عطلتها عند خالتها؛ تعرفينها، شقيقة جانّ التي تزوجت من ضابط بحرية روسي. كنت قد حدثتك عن هذه القصة: رجل يدعى بوريس، طلب اللجوء السياسي حين توقفت سفينته في لاهاي».

بلهجة شخص كبير عاقل، وبلغة مصطنعة بشكل ملفت لطفلة في عمرها، أضافت ماري الصغيرة تعليقاتها الخاصة، قائلة:

«ليس العم بوريس لاجئاً سياسياً حقاً. إنه عميل سوفييتي متنكِّر كمنشقّ وهو مكلَّف بزرع المعارضة والفوضى ضمن صفوف عمّال الصناعة الذريّة.

وسألتُها بمرح: - أأنتِ التي اكتشفتِ ذلك وحدك؟

أجابت دون اضطراب: - نعم أنا؛ لقد رأيت بأنه موشوم برقمه الجاسوسي وبالأزرق على قبضة يده اليسرى. وهو يحاول إخفاءه تحت رباط من الجلد، يضعه ظاهرياً لحماية مفصله. لكن هذا ليس صحيحاً بما أنه لا يقوم بأي عمل عضلي.

قالت لي كارولين: - لا تصغي لماري. فهي تخترع دائماً قصصاً عبثية، في الخيال العلمي أو في الجاسوسية أو في الأرواح. فالأطفال يقرأون كثيراً في الأدب الخيالي».

في تلك اللحظة، لاحظت بأن شخصاً ما كان يراقبنا وهو على بعد خطوات منا، متراجعاً قليلاً إلى الخلف، عند زاوية الجدار، ومحدِّقاً بمجموعتنا الصغيرة بنظرة مهتمة بشكل غير طبيعي. اعتقدت بادئ الأمر أن ماري هي التي كانت تلفت انتباهه هكذا بطريقة مشبوهة.

قد يكون عمره حوالى أربعين عاماً أو أكثر قليلاً؛ كان يرتدي بزّة رمادية مضلّعة، على الطراز التقليدي (سترة وبنطال وصدرية مناسبة) لكنها قديمة، ومهترئة ومشوّهة من كثرة

الاستعمال؛ كما يرتدي قميصاً وربطة عنق مهترئين تماماً كما لو أنه قد نام بثيابه وقتاً طويلاً جداً في رحلة قضاها في القطار. كان يمسك حقيبة من الجلد الأسود بيده، هذا ما ذكّرني بحقيبة الجرّاح، ولا أعرف بالضبط لماذا!

إن عينيه الداكنتين والثاقبتين والغائرتين عميقاً، وهذا الوجه بقَسَماته غير المتوازنة والثقيلة والبارزة بشكل مشوّه، وهذا الفم الكبير الملوي بنوع من التكشيرة، كل ذلك ذكّرني بقوة بشيء ما... بذكرى حديثة مع ذلك، لكنني لا أستطيع تحديدها.

ثم وبلمحة واحدة تذكرت: إنه سائق سيارة الأجرة الصفراء الذي كان قد أوصلني إلى المحطة. قد شعرت تجاهه بانطباع قوي من عدم الارتياح الشديد، لدرجة أنني أحسست بنفسي وقد احمرّ لوني. أشحت بنظري عن هذه الشخصية المزعجة. لكن بعد بضع ثوانٍ، نظرت إليه من جديد.

لم يغيّر من حركته ولا من اتجاه نظرته. لكن بالأحرى، كانت كارولين في الحقيقة هي موضع مراقبته. هل نسيت الإشارة إلى أن كارولين جميلة جداً؟ إنها طويلة متناسقة، نحيلة، وجدّ شقراء، شعرها قصير ووجهها عذب ومخنث قليلاً، يذكِّر كثيراً بوجه الممثلة جين فرانك، وهي تجذب إليها دائماً ملاطفة المعجبين المتطفلين ومن كل الأعمار.

يجب أن أبوح بشيء آخر أيضاً: يدّعي الناس أننا نتشابه أنا وهي في الشكل بطريقة غريبة.

ويظنوننا بشكل عام أختين، حتى إنهم يظنوننا غالباً توأمين. وقد حدث عدة مرات بأن توجّه بعض أصدقاء كارولين بالحديث إليّ، معتقدين أنهم يحدثونها هي، وهذا ما سبّب مغامرة غريبة في أحد الأيام...

لكنّ كارولين قطعتْ عليّ سلسلة أفكاري متسائلة وهي تتفحصني بقلق: «ماذا جرى لكِ؟ لقد تغيّر وجهك وكأنك تنظرين إلى شيء مخيف».

ماري، التي كانت قد خمّنت سبب انفعالي، شرحت الأمر بصوت هادئ وعالٍ جداً قائلة:

«إنّ الرجل الذي يلاحقنا منذ نزولنا من القطار مازال هنا بحقيبته الصغيرة المليئة بالسكاكين. لابد أنه شهواني مهووس، وكنت قد رأيته قبل قليل». همست كارولين وهي تنحني نحو الفتاة الصغيرة بحجة تنظيم طيات ثوبها المتغضن: "لا تتحدثي بصوت عالٍ، فإنه سيسمعنا.

فأجابت ماري دون أن تخفض صوتها:

- طبعاً هو يسمعنا، فهو هنا من أجل هذا».

فجأة مدّت لسانها صوب هذا الرجل المجهول، في الوقت نفسه الذي كانت تبتسم له ابتسامة ملائكية. بدأت كارولين تضحك، بلا مبالاتها المعتادة، وهي تؤنب ماري شكلياً ودون أدنى اقتناع. ثم قالت لي:

« في الواقع، ربما الصغيرة على حق. أعتقد أساساً بأن هذا الرجل قد استقلّ قطارنا ذاته. إذ خُيِّل إليّ أنني رأيته يتجول في ممر المقطورة، وكنت قد لمحته سابقاً على رصيف محطة الانطلاق في أمستردام». وبعد أن رفعت عينيّ من جديد نحو هذه الشخصية المقلقة ذات الحقيبة السوداء، وجدت نفسي أمام مشهد ما زال يزيد من دهشتي. لم يعد هذا الرجل ينظر باتجاهنا، وهو الآن ينظر إلى ضرير كان يتجه نحوه، متلمساً الأرض بالنهاية الحديدية لعصاه. كان الضرير شاباً طويلاً أشقر له من العمر عشرون أو خمسة وعشرون عاماً، يرتدي سترة أنيقة من الجلد الناعم جداً، بلون سكّري، ومفتوحة على كنزة صوفية بلون أزرق زاهٍ. وكانت نظارات سوداء كبيرة تخفي عينيه. ويحمل في يده اليمنى عصاه البيضاء ذات القبضة المعوجّة. ويقوده من يده اليسرى صبي في الثانية عشرة من عمره.

خلال بضع ثوانٍ، ورغم أن الأمر لا يبدو حقيقياً، إلاّ أنني تخيّلت نفسي أمام سيمون لوكور الذي ربما عاد متنكراً بزيّ الكفيف. حين حدّقت فيه أكثر، عرفت مباشرة خطأي بالطبع:

فبعض النقاط المشتركة التي يمكن استخلاصها من الهيئة العامة، أو اللباس أو طريقة تصفيف الشعر لدى الإثنين لم تكن في الواقع ذات أهمية.

حين وصل الشاب ذو العصا البيضاء ومعه دليله إلى جانب الرجل ذي الثياب الرثّة الذي يحمل حقيبة الطبيب، توقفا. لكن لم يبدِ أيّ منهم أدنى حركة. لم يحييوا بعضهم بعضاً، ولم يتبادلوا الحديث ولا حركات التأهيل والاستقبال التي من المنتظر حدوثها في مثل هذه الظروف. وبقوا هنا ثلاثتهم دون أن ينبسوا ببنت شفة، قبالة بعضهم بعضاً، دون حراك، من الآن فصاعداً، ، ثم، وبتمهل ودقة، التفتوا نحونا بحركة واحدة منتظمة وكأن الآلية ذاتها تماماً كانت تحرك رؤوسهم الثلاثة. وبقوا هكذا جامدين من جديد، دون حراك وكأنهم ثلاثة تماثيل:

فالشاب الأشقر ذو الوجه الأبيض وشبه المتنكر بالنظارات الضخمة، محاطٌ بالصبي إلى يساره وبالرجل القصير بالزي الرمادي المتغضن إلى يمينه. وكانت أعينهم ثلاثتهم مركّزة عليّ، والضرير كذلك، من خلف نظاراته الضخمة السوداء، وأستطيع أن أقسم على هذا.

كان وجه الغلام النحيل شاحباً جداً، وغير طبيعي، كأنه شبح؛ و ملامح الرجل القصير القبيحة متجمدة على شكل تكشيرة فظيعة. بدت لي فجأة كل المجموعة مخيفة لدرجة أنني رغبت بالصراخ كما لو أنني أريد التخلّص من كابوس جاءني في الحلم.

لكن، كما في الكوابيس، لم يخرج أي صوت من فمي. لماذا لم تقل كارولين أي شيء؟ وماري التي كانت واقفة بيننا نحن الإثنتين، لماذا لم تكسر هذا الانجذاب بطلاقتها الطفولية دون خوف ودون احترام؟ لماذا لم تعد تتحرك، وكأنها أصبحت بكماء هي أيضاً؛ بفعل أي سحر؟

كان القلق يزداد لديّ بشكل خطير وفظيع، حتى إنني خشيت أن أفقد الوعي. ولمكافحة الانزعاج غير المحتمل والنادر في طبيعتي، حاولت التفكير بشيء آخر. لكني لم أجد سوى أحد الأحاديث الغبية التي وجهها إليّ سيمون قبل ساعة أو ساعتين من الآن لأتعلّق بها:

كان يدّعي بأنني لست امرأة حقيقية، لكني آلة ألكترونية فقط، حديثة جداً، ركّبها السيد المدعو الدكتور مورغان. وهو الآن يهتم بإجراءِ مختلف التجارب عليّ، كي يفحص قدراتي. كان يضعني تحت سلسلة من التجارب، وهو يراقب ردود أفعالي بواسطة عملاء في خدمته، موضوعين في طريقي أينما ذهبت، وبعضهم أيضاً ليسوا سوى رجال آليين...

هذا الكفيف المزيّف الذي وصل للتوّ كأنه جاء صدفة قبالتي، أما بدت لي حركاته بشكل خاص آلية ومتقطعة؟ إن نظاراته الغريبة التي كان كبر حجمها يزيد من خوفي أكثر فأكثر، لم تكن تغطي دون شك عينين حقيقيتين، لكنْ، جهازَ تسجيل متطوراً

جداً، حتى إنها من الممكن أن تغطي جهازين يرسلان إشعاعات موجهة نحو جسدي ووجداني دون علم مني. ولم يكن الجرّاح - سائق التاكسي إلاّ مورغان ذاته.

كان الفضاء الذي يفصلني عن هذه المجموعة قد فرغ من المارّة، ولا أعرف بأي صدفة أو أعجوبة قد حدث ذلك. فالمسافرون الذين كانوا يمرون هنا بأعداد كبيرة قبل لحظات مضت، قد اختفوا الآن... وبصعوبة كبيرة وغير مفهومة استطعت أن أشيح بوجهي عن هذه النظرات الثلاث التي سيطرت عليّ مغناطيسياً. حاولت البحث عن نجدة من جهة ماري وكارولين...

كانتا هما أيضاً تحدّقان بي بالعيون الجامدة وغير الإنسانية ذاتها.

إنهما لم تكونا من معسكري بل من معسكرهم، ضدي... شعرت بساقيّ ترتجفان وبعقلي يضطرب، ويهوي في الفراغ بسقطة دوارية....

حين استيقظت هذا الصباح، كان رأسي فارغاً وثقيلاً، وفمي جافاً كالعجين، كأنني انسقت عشية الليلة الماضية إلى الإفراط في تناول المشروبات الكحولية، أو كأنني ابتلعت قرصاً مخدّراً قوي المفعول. مع ذلك، لم يكن الأمر هكذا...

ماذا فعلتُ بالضبط في الليلة الماضية؟ لم أكن أتوصّل إلى تذكّر ذلك...

كان عليّ أن أذهب إلى المحطة لملاقاة كارولين، ولكنّ شيئاً منعني من ذلك... لم أعد أدري ما هو.

ومع ذلك، فقد عادت صورة إلى ذاكرتي، لكني لم أستطع ردها إلى أيّ سبب. كانت هناك غرفة كبيرة، مؤثثة بأثاث متنافر وبحالة مهترئة سيئة، كما هي الكراسي المخروقة والمنقوبة، وهياكل الأسرّة الحديدية التي نهملها فنضعها في سقيفة المنازل القديمة.

كان هناك، بخاصة، عدد كبير من الحقائب القديمة، بأحجام وأشكال مختلفة. وقد فتحتُ واحدة منها، فوجدتها مليئة بثياب نسائية عفا عليها الزمن، ومِشَدَّات وتنانير داخلية وأثواب جميلة قديمة ذابلة.

وجدتُ صعوبة في تمييز التزيينات المعقدة والتطريز، ذلك لأن الغرفة لم تكن مضاءة إلاّ بشمعدانين تحترق فيهما بقايا شمعات ذات شعلة صفراء مرتجفة...

ثم فكّرت بالإعلان الصغير الذي قرأته لي كارولين هاتفياً حين اتصلت بي لكي تحدّد لي ساعة وصول قطارها. بما أنني كنت أبحث عن عمل صغير يساعدني على إكمال مبلغ منحتي الدراسية، فقد قررتُ الذهاب إلى العنوان المحدّد الذي يعرض هذا العمل الغريب الذي وجدتْه صديقتي في أثناء قراءتها لمجلة

أسبوعية تتحدث عن علوم البيئة. لكنني نمت طويلاً اليوم لدرجة أن لحظة استعدادي كانت قد حلّت، في حال رغبت حقاً أن أكون هناك في الموعد المحدد.

وصلتُ في الساعة السادسة والنصف تماماً. كان الظلام قد بدأ يحلّ. ولم يكن العنبر مقفلاً. دخلتُ دافعةً الباب غير المُقفَل.

في الداخل كان الصمت مطبقاً. وتحت الإضاءة الضعيفة الآتية من النوافذ ذات الزجاج المغبَرّ، وجدت صعوبة في تمييز الأشياء من حولي، المكّومة في كل اتجاه وفي فوضى هائلة، وهي أشياء لا تستعمَل دون شك.

وحين اعتادت عيناي على الظلمة، لمحت أخيراً رجلاً قبالتي، واقفاً لا يتحرك، واضعاً يديه في جيب معطفه الواقي من المطر، ينظر إليّ دون أن ينبس ببنت شفة، ودون أن يوجّه لي أي تحية.

وبإصرار تقدمتُ نحوه...

خاتمة

هنا تتوقف حكاية سيمون لوكور.

أقول عمداً «حكاية سيمون لوكور» لأنه ما من أحد - لا من جهتنا ولا من جهة الشرطة - يعتقد بأن الفصل الثامن الذي كُتِب بصيغة الأنثى، قد كتبه حقاً شخص آخر: فهو يتداخل بشكل واضح في بقية الحكاية، من ناحية القواعد اللغوية ومن ناحية منطق سير الأحداث والانقلابات الروائية على السواء.

اتفقت أقوال الشهود كافة على نقطة واحدة هي أن سيمون جاء بشكل طبيعي للتدريس في المدرسة الواقعة في شارع باسي، يوم الخميس الواقع في الثامن من أيار في بداية فترة بعد الظهر. وقد أكد العديد من طلابه خلال التحقيق بأنه «كان يبدو عليه القلق». لكنّ أغلب الطلاب أضافوا أنه كان دائماً قلقاً.

كان يمثِّل في الواقع مزيجاً محيِّراً من العصبية شبه المَرَضية، ومن القلق الواضح والفرح اللطيف المستسلم الباسم الذي يدخل بالنسبة لكثير من الناس في نطاق السحر الجاذب الأكيد الذي يستمتع كل إنسان في أن يعترف له به. في أسرع الحوارات التي جرت في الممر بينه وبين أحد زملائه أو إحدى

طالباته، أو حتى بينه وبين أحد رؤسائه، كان يثرثر طوعياً بلطف مليء بالحكايات الخيالية غير المتوقعة وغير المتحفظة، وبعفوية ومرح دون طائل، وهذا ما جعله محبوباً من كل الناس، كما يحب الناس طفلاً صغيراً...

ثم فجأة، كانت الابتسامة البريئة تمّحي من على شفتيه اللتين كانتا تفقدان في بضع ثوانٍ شكلهما الجميل الحسي كي تصبحا قاسيتين رقيقتين؛ كما أن عينيه تغوران في محجريهما فتظلم الحدقتان...

ويستدير فجأة كأنه يفكر بعمل تلك الحركة عند مقابلة عدو قد يقترب خلسة من خلف ظهره... لكن لا يكون هناك أحد، فيعود سيمون بهدوء إلى وضعيته الأولى، أمام محدثه الحائر. ويبدو حائراً هو أيضاً، كأنه هرب مسافة آلاف الكيلومترات أو مسافة عدة سنوات ضوئية. كان يتوقف عند بعض الكلمات المبهمة، غير المترابطة التي تكاد لا تُسْمَع.

يوم الجمعة الواقع في التاسع من أيار، لم يأتِ إلى المدرسة. لم يقلق أحد عليه: فَحِصّته يوم الجمعة عادة في نهاية اليوم، وهو الدرس الأخير في الأسبوع، وكثير من الطلاب - وخاصة في الربيع - يودون اعتباره درساً اختيارياً؛ قد يحدث ويفعل بعض الأساتذة أحياناً الشيء ذاته.

لكن في يوم الإثنين الواقع في الثاني عشر من الشهر نفسه، لم يره أحد أيضاً ولا حتى في يوم الثلاثاء. ولم يكن لديه هاتف في غرفته. يوم الأربعاء، سأل نائب المدير الطلاب فيما لو كان بإمكان أحدهم المرور من شارع أمستردام للاطمئنان على صحة «يان» الذي قد يكون مريضاً جداً، وغير قادر على إخبار أحد بذلك. وجدت المبعوثة التي ذهبت طوعياً لهذه المهمة الباب مقفلاً. ولم يُجِبْ أحد على قرعها المتكرر للجرس ولا على نداءاتها. ولم تكن هناك أي ضجة تأتي من داخل الغرفة.

صادف يوم الخميس في الخامس عشر من الشهر، عيد الصعود[1]. وفي صباح يوم الجمعة الواقع في السادس عشر من الشهر، أبلغتْ إدارة المدرسة الشرطة بالأمر. خُلِعَ باب سيمون لوكور بحضور محقق الشرطة في المنطقة، يوم الجمعة هذا حوالي الثانية عشرة ظهراً.

في الغرفة، كما في الحمّام، وجد المحققون كل شيء مرتباً في مكانه، كما وجد عملاؤنا الشيء ذاته حين فتشوا الغرفة قبل يومين (إذ كانوا يملكون بالطبع مفتاحاً آخر بديلاً للغرفة). لم يكن هناك أي أثر لعراك أو لزيارة متطفلة ولا لرحيل متعجِّل. إن الأوراق التسع والتسعين المطبوعة (التي وضعناها في مكانها بعد أن صوّرنا نسخة عنها) أصبحت إذن بسرعة العنصر الوحيد الذي يمكن اعتباره دليلاً.

---

(١) هو خميس الصعود، وهو صعود السيد المسيح إلى السماء، ويأتي بعد عيد الفصح بأربعين يوماً. (المترجمة)

نظن أن اهتمام المحققين أصبح أكبر بهذا النص، عندما اكْتُشِفَتْ يوم الأحد الواقع في الثامن عشر من الشهر، نحو الساعة السابعة مساءً، وفي ورشة مهملة قريبة من محطة الشمال، جثة هامدة لفتاة مجهولة تبلغ من العمر عشرين عاماً تقريباً. ولم يمر على موتها أكثر من ساعة أو ربما أقل من ذلك.

لم تكن الضحية الشابة تحمل معها أي ورقة تثبت هويتها. إلاّ أن مظهرها الخارجي وثيابها ووضعها الدقيق على الأرض (والمكان ذاته أيضاً)، كل ذلك تطابق تماماً مع ما وُصِفَ في الفصل السادس من حكاية سيمون لوكور.

كما أشار هذا الأخير، إن بقعة الدم كانت اصطناعية. فلقد لاحظ الطبيب الشرعي فوراً بأن الجسم لا يحمل أي جرح أو أي رضوض خارجية، فبقيتْ أسباب الوفاة غامضة إذن. ومع ذلك فإنّ الأمر كان يبدو، بطريقة لا تقبل النقاش، أننا أمام جريمة قتل وليست حالة وفاة طبيعية.

بقيت كل المحاولات التي بُذِلَت من أجل تحديد هوية المرأة الشابة حتى الآن دون جدوى: فلم يعلن عن اختفاء أي فتاة تطابق مواصفاتها مواصفات القتيلة، في كل أنحاء البلاد وبسبب قرب مكان وقوع الجريمة من المحطة، توجهت التحريات الآن نحو

«آنفير[1]» أو «أمستردام». هناك نقطة أخرى حيّرت الشرطة، ألا وهي الشبه العجيب الموجود بين القتيلة وسيمون لوكور نفسه (الهيئة العامة، القياسات، ملامح الوجه، لون العينين والشعر... إلخ). والأمر مقلِق لدرجة أنه يمكن الاعتقاد للحظة أنهما شخصية واحدة: فقد يكون أستاذ المدرسة الفرنسية – الأميركية الجذاب امرأة متنكرة. إلاّ أن هذه الفرضية الجذابة لم تؤخذ مع ذلك بالحسبان، لأن طبيب المدرسة كان قد فحص سيمون المزعوم تفصيلياً، قبل أسبوعين من الحادثة، وأكد انتماءه إلى جنس الذكور.

كان الطبيب الممارس - دكتور مورغان - يعتني بسيمون ويعالجه من اضطرابات في الرؤية، اضطرابات حادة على ما يبدو، بالرغم من أنها في الأصل ذات منشأ عصبي. فالمختفي كان يدّعي في الواقع أنه يعاني من هبوط مفاجئ في الرؤية (قلّة الإضاءة في الصور المنطبعة على الشبكية)، والمتكررة أكثر فأكثر، والتي يمكن أن تصل إلى العمى الكامل، خلال عدة دقائق أحياناً. وكان مورغان، المغرم بالتحليل النفسي، قد فكّر مباشرة أنه يشكو ببساطة من عقدة أوديب.

---

(١) آنفير مدينة في بلجيكا. (المترجمة)

وقد اكتفى المريض بإجابته ضاحكاً، بأنه لا علاقة له بمدينة كولونيا[١]. هذه المزحة العبثية، إذا ما أضيفت إلى موضوع الحكايات المتفكِّكة استمرت في إغراق الطبيب في حيرة كبيرة وشكوك جديدة.

من غير المستبعد بالطبع أن يكون هذا الضرير الآتي إنساناً مرائياً وسوقياً، إلاّ أننا لم نستطع توضيح دوافعه، بما أنه لم يطلب من مستخدمه أي إجازة مَرَضية، أو أي تغيير في برنامج دروسه. ومن بين كل الشخصيات التي كانت تظهر في حكايته، واحدة منها في كل الأحوال - على الأقل - موجودة دون شك: إنها الصغيرة ماري. بدءاً من الورشة المهملة، وجد المحققون دون كبير عناء المقهى - المشرب الذي لا يقدّم البيتزا للزبائن.

وراقب أحد رجال الشرطة هذا المكان خلال عدة أيام. حيث دخلت إليه، الصغيرة ماري، وهي ما زالت ترتدي ثوبها من طراز العام ١٨٨٠، في اليوم الواقع في الواحد والعشرين من الشهر، مساء (وكانت قد جاءت، كما علمنا فيما بعد، لتسديد حساب قديم). وعند خروجها، لحق بها الشرطي. وتبعها حتى شارع فيرسانجيتوريكس المسدود. وفي منتصف الزقاق الطويل، تدخّل رجالنا، وأعادوه من جديد إلى نقطة البداية، بعد اعتراض لطيف لسبيل هذا الحارس الفضولي .

---

(١) كولونيا مدينة في ألمانيا على نهر الراين. لكن، لا بد أن المقصود هنا كولون Colone وهي بلدة سوفوكليس اليونانية التي تشرّد فيها أوديب، كما عبّر عن ذلك سوفوكليس في التراجيديا التي كتبها بعنوان «أوديب في كولون». (المترجمة)

آلان روب - غرييه

كاتب وسينمائي فرنسي، ولد في بريست في العام ١٩٢٢.

ارتبط اسمه بتعبير «الرواية الجديدة». وهو الكاتب الوحيد الذي أسس مدرسة روائية بحق.

رواية «دْجين، الجنيّة» المنشورة في العام ١٩٨١ هي بين الكتاب المدرسي والحكاية الخيالية.

بالنسبة لآلان روب -غرييه، المستقبل غائب ولا وجود له، وهو المأساة والتشويق الروائي المعلّق.

تضعنا روايات آلان روب -غرييه أمامٍ مشكلة المعنى فيها؛ فالعالم الذي نعيشه والذي أصبح مجرّداً من القِيَم الراسخة، يدعونا إلى تأويل الواقع حسب الإمكانيات المتاحة.

وهكذا تقع "الرواية الجديدة" ضمن حيّز التردد الدائم وعدم التأكّد من أيّ أمر من الأمور التي كانت في ما مضى من المسلّمات.

(المترجمة)

الطبعة الأولى / ٢٠١٠

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



«دْجين»، الجنيّة

فجوة حمراء بين الحكايات المتفككة

هذا الكتاب

نخطئ إذ نطالب بموت الرواية الجديدة، وهي المدرسة الأخيرة التي وُلِدَتْ في الستينات لتضع الأدب، شكلاً فنياً، في قلب نقاشنا وسجالاتنا.

ليس المبدعون فقط الذين أطلقوا هذه الحركة الثقافية وأظهروها مستمرين في الإنتاج، مضيفين إلى عملهم أجمل الأعمال، لكنهم، ودون الابتعاد عن خطّهم، يرون جمهورهم يتسع وكأنّ هذا الجمهور الذي أزاحوه طويلاً عن خط سيره، قد اعتاد على صوتهم وعلى جديدهم (...) وفي بداية هذا الربيع، ها هي ذي تظهر رواية «دْجين» لِ «آلان روب غرييه»، المكتوبة بامتياز والتي تمثّل تحدياً وكشفاً في آن واحد.

ولأن إحدى الجامعات الأميركية قد طلبت منه نصاً يكشف للطلاب تدريجياً صعوبات لغتنا، فإن كاتب «الغيرة» و«العارف» و«الخالدة»، قد قدّم حكاية خارقة تحبو إلينا، وأي تصنّع مبالغ فيه ضمنها لن يُفْسِدَ متعة قراءتها.

قد لعب المؤلف بحساسية تدريجية على استخدام الزمن، كما لعب بمرح ساخر على عالمه الروائي الخاص، وعمل على مداعبة وتره الأكثر حساسية وهو الخيال الحلمي، فاستحوذ السحر على آلان روب – غرييه وجعله يستحوذ علينا.

جاكلين بياتييه (لوموند، ٢٠ آذار ١٩٨١).

The Syrian General Organization of Books

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٠

سعر النسخة ٧٠ ل.س أو ما يعادلها